عبد العزيز سيد الأهل

المفتش بوزارة المعارف المصرية
والأستاذ بالكلية العاملية في بيروت

عبقرية البحتري

دار العلم للملايين
بيروت
شباط ١٩٥٣

الطبعة الأولى

شباط ١٩٥٣

مقدمة

•

سنحاول في كتابنا هـذا – جاهدين – ان نلقي على البحتري وصناعته ضوءاً جديداً ، وإننا لنقرّر – ونحن نشعل هذا الضوء – اننا لن نلقي قولاً بلا دليل ، بل إننا لن نترك لأنفسنا ان نبدي رأياً دون الثقة فيه ، ولن نلقي لرأي بالاً إلا اذا كان صادراً عن الثقات الذين يُعنتون أنفسهم للوصول إلى ما له قيمة من الآراء .

وسيرى القارىء – حقاً – اننا قلنا شيئاً جديداً في البحتري وهو الشاعر الذي يدرك الناس لأول وهلة من ذكر اسمه انه في غنىً عن الدراسة لسهولة شعره ، ونزولاً على ما ذاع عنه ، وتأثراً بما شاع من مشهوراته ، ولم يعلموا ان وراء هـذه السهولة المطمئنة صعوبة رابية يتعب في مدى تبيانها والوصول الى اسرارها الضوء اللامع والفكر الثاقب .

ومهما رأى القارىء من جهد بذلناه في كتابنا هذا فانه سيراه عجالة قصيرة وإجمالاً موجزاً ، فالبحتري وديوان شعره تاريخ حافل بحوادث يزيد زمنها على نصف قرن من الزمان . وقد حدث فيه من الحوادث والتقلبات ما جعل المجتمع متغيّراً

حوَلاً ، وما ولّد أو عدّل أو أثار من الآراء والافكار أعداداً لا تعد واشياء لا تحصى .

وقد حشد البحتري في ديوانه تفاصيل بيئات مختلفة الأرض في العراق والشام ، وما يجاوزهما الى مصر وارض العجم ، ودوّن اموراً كباراً وصغاراً للطبيعة الصامتة والمتحركة وما صنعه الناس او جبلوا عليه . ومثل هذا الديوان يحتاج في إحصاء جزئياته — دون ادنى مبالغة — الى مجلدات .

وفي ظني ان البحتري بعد هذه الدراسة العميقة الشاملة لم يزل مجهول كثير من النواحي ، وما أظن غيري ممن درسوا البحتري — وهم قليل — يجاوز هذا الظن في نفسه ، إلا اذا ملكه الغرور الذي نعوذ بالله منه ، وما على من يريد ان يتحقق من أننا لا نهوّل إلا ان يذهب الى ديوانه ليرى أمامه بحراً لاحدود لشطآنه ، وهو جد مصطخب ثائر الاضطراب ، يشتهي رجالاً صُبُراً على البحث على مرّ الشهور والسنين .

وفي كتب الأدب القديمة أخبار مجموعة او مبعثرة عن حياة البحتري وشعره ، ولكنها كانت على طرائق القدماء ، يعجلون بالنظرة الاجمالية أو يقعون على الاجزاء والتفاصيل ، ثم يختار كلٌّ ما يهواه . واهم الكتب التي خصصت انفسها له كتاب عبث الوليد لأبي العلاء و كتاب الموازنة للآمدي ، والأول يجدّ في البحث عما يعيبه ، والثاني يجدّ في البحث عما ينصفه ، وهما وراء المعاني الجزئية أو الالفاظ المفردة أو التراكيب ، فالدراسة مملولة ، والنغمة واحدة لاتطرب ولا تشجي .

ولكننا لا ندع كتب عبد القاهر وابي هلال و « عمدة » ابن رشيق و « زهر » القيرواني من بين الكتب القديمة دون ان نثني على ما قدمته لنا من صحائف مملوءة بما يشبع ويشفي.

أما البحوث الجديدة فكان ادقّ ما قرأته منها كتاب « البحتري » لجرجس كنعان وهو حقاً درس وتحليل كما سمّاه وقد شقّ فيه الجهد وثقب الفكر ، ثم كتاب « طيف الوليد » لعبد السلام رستم وهو احفل مؤلف في تاريخ الرجال الذين وصل البحتري بهم حياته لامتداد سلطانهم إذ ذاك على نواحي الحياة . ثم ما كتبه طه حسين في حديث الشعر والنثر ، وطه حسين فيه كالبحتري تماماً يقرّب البعيد ويتألف الغريب ، وقد ضمّ في سطوره القليلة أطراف البحتري . وهناك كلمة في كتاب الرؤوس لمارون عبود ، وهي على طريقته الجادة اللاعبة ، ومارون عبود جعبة ممتلئة وكلمة بارعة . اما ما كتب عنه في الدراسات المقيدة بقوى الطلاب فشيء كثير ، ولا يخلو اكثره من جهد مشكور .

وبرغم ذلك كله فان كتاب البحتري لم يزل مغلقاً ، وإن له لخطراً ابلغ مما يُظن ، فهذا الشاعر الذي قالوا فيه انه جاء بشعر فغنىّ كان جديراً بما وصف به ، وانه حقاً ليسرك حتى تتملأ ، ويرفق منك حتى ترهف ، ويدعوك حتى تثور ، ويبكيك حتى لا يجمد في عينيك دمع ، ولو لزمت ديوانه وعشتَ ثمانين عاماً — وبُلّغتَها — لظللت تضحك معه وتُعجب به ، وتبكي معه وتعجب منه !

ولم أكن أخشى أحداً حين أقدمت على هـذه الدراسة إلا اصحاباً لي كانوا قد قالوا : ان كتابك في عبقرية ابي تمام جاء صعباً كأبي تمام ، وأنا أخشاهم غداً ان يقولوا ان كتابك في البحتري جاء سهلاً كالبحتري . ولكني أحسست غير ما رأوا ، فحين درست ابا تمام وجـــدتُ صعوبة معينةً على الدراسة ميسّرة لها ، وحين جئتُ الى سهولة البحتري احتجت فيها الى مشقة وكلفة افقدتني الاحساس بالزمن الذي يمر من حولي في دجلة وبياض .

ثم جعلت الكتاب ثلاثة ابواب ، كما كنت جعلت كتاب عبقرية ابي تمام :

الباب الاول : في مزايا الشاعر ، وهي تتناول طبعه وتقليده وطريق دراسته ، ثم اجماع الناس عليه بالتفضيل في زمانه وبعد زمانه الى اليوم.

والباب الثاني : وهو الغرض الأصيل من الكتاب ، شرحت فيه طريقة اختياره لألفاظه المفردة ، ثم طريقته في تزويج الكلمات بروابط النسب القوية ، ثم سرت معه في نظم المعاني تنضيداً وتجويداً ، وأنهيت البـاب بالكلام على تهذيب شعره وبناء قصيدته .

والباب الثالث : تحدثت فيه عن مشهورات البحتري أبياتاً مفردة ومقطعاتٍ مقطوعـة أو مستقلة ، وقصائد فريدة .

وقد أنفذت وراء ذلك كله رأياً لعله كشف بعض ما لم يعرف من قبل ، وأنا راجٍ ان يظفر برضا المنصفين . ثم أسلتُ في دراستي له جامد البلاغة لتتحول الى حياة نابضة مع شعره . وهذا رأي رأيته ، أدعه للزمن ، والزمن مُنخُل الآراء ، وفي اهتزازاته بين يدي التاريخ يستقر في الخلد كل رأي قوي بديع ، من حيث يُؤْمَى بكل رأي ضعيف مشين ، ويموت صيت الادعيـــاء في غير ضجة ولا أحزان . « فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

بيروت في ١٩٥٣/١/١ عبد العزيز سيد الاهل

الباب الاول

مزايا الشاعر

•

الى شبهة الحضارة — المزاج الحاد — بعض الاحتيال انتظام الدراسة — التقليد والطبع — الاجماع عليه .

الى شبهة الحضارة

وفد الوليد بن عبيد البُحتري على حلب وهو فتى ، ولم يكد يقيم بها حتى ألقى بقلبه بين يدي فتاة تغني للناس عامة . وكانت الحياة في حلب غيرها في منبج ، فبلده مع ما يستمتع به من خصب وسعة فناء وبهجة بساتين كان غائباً في أثناء البادية . أما حلب فبلد في تيار الحضارة ، تلتقي به قوافل التجارة فتروج السوق وتنشط الاعمال وتزدحم الآراء فتتعادى أو تتفق . ويجد اللهو والمرح مكاناً فسيحاً في حلب لوفرة ما فيها من غنى وشدة ما فيها من زحام .

فلما انتقل البحتري الى هذا التيار الفائر لم يدر غير دورة

حتى التقى بعَلوة بنت زُرَيقة في ذات مساء وفي ملهى للغناء فأحبها ، وجعل يتبعها في اماكن اللهو بين أفياء حلب في حدائق الظُّهران (١) وعلى ضفاف قويق (٢) وعند ضاحية بَطياس (٣) وباب قِنَّسْرين (٤) . وبدت هذه الفتاة الشادية والتي كانت حديثة عهد بالغناء في عين الشاب القادم من أمّ البادية فتنة الدنيا وجمالها .

ورآها في عينيه بادية المحاسن ، غصناً معتدلاً لدْناً قد أنعشتها نعومة الصبا ، ذات عينين حوراوين وراءهما معنىً لامرأة لم يعرفه في منبج ولم يحسّ بمثله . وخدعه منها انها فتاة خجول إذا اعترتها خجلة اتقدت وجنتاها ناراً . وسمع بقلبه المشبوب صوتها فأصغى له وحده ونقاه من بين دقات الأعواد والأوتار ثم تصوره صوتاً غنياً عن هذه الآلات المساعدة التي تعين القيان على تحسين الألحان .

وما أظن البحتري كان يعلم شيئاً من أصول الغناء حين وفد على حلب . ولعله جاء إليها وهو لا يسيغ إلا انطلاق الاصوات به في البادية من غير قيد ، فلما سمع إلى العود والأوتار تكتم الصوت وتقيده في حدود النغم المرسوم ،

---

(١) لعل مكان هذه الحدائق هو المكان المزروع الآن تحت جبل الجوشن ويسمى الزهرة وهو مكان جد خصيب .

(٢) يقولون إن مجرى قويق كان غير مجراه الحالي ولم يكن حاله كما هو الآن .

(٣) و (٤) محلتان من حلب القديمة كانت دار علوة بينهما وهما باعلى النهر من قويق .

وسمع الغناء في حلب مقيداً بأصول النغم ، وسمع في صوت علوة انطلاق أصوات البادية ، وأصغى للصوتين ودّ لو تُركت علوة تغني بغير مساعد من الآلات ، فانها حين تطلق اللحن تعجز الأوتار أن تنطلق معها . بل هي تجور على صوتها فتخنقه ليظل عند ما حُدد له من نغم مرسوم (١) .

بيضاء رَوْدُ الشبابِ قد غُمست في خجل دائم يعصفرها
مجدولة هزها الصبا فشجا قلبكَ مسموعُها ومنظرها
لا تبعث العود تستعين به ولا تبيت الاوتار تخفرها

هكذا قال يصف علوة ويصف غناءها ، وهو على ما فيه من غلوّ يدل على ان البحتري – أول عهده بالمدنية – كان أميل في الغناء للأصوات المنطلقة بلا قيد ، وهو أثر للبادية في ذوقه ظل يشده إليه من وسط الأذواق الجديدة التي زحمته ، ولم تزل به حتى قسرته على أن يختلط بها ، وهو كذلك أول دليل يلقاك من حياة البحتري ليخبرك ان الشاعر متأثر بالسليقة إلى حد كبير .

ثم جرت بينه وبين علوة أمور كانت خليقة أن تشغل قلبه بها ، فأمها زُريقة كانت امرأة تعرف بالمزاولة دخائل الرجال ، فوقفت حائلا بينه وبين ابنتها ، تقصيه وتقسّي قلبها وتقطع بينهما ، وما لبثت علوة ان تعلمت صنعة السوق ففترت عند لقائه وقصرت في توديعه ، ومالت إلى فضل خمارها تمسح عن فمها أثر قبلاته واقبلت إلى الوشاة تميل معهم

(١) البحتري ص ١٢٦ .

وتقبل فيه عذلهم .

تلك التي لم يَعدُها قصدُ الهوى — مالت مع الواشين كل مميلِ
عجلت إلى فضل الخمار فأثوت — عذباته بمواضع التقبيل

وما كان ذلك منها ومن امها إلا لانه قد هام بها ، ولعل علوة كانت تفعله لتزيده انتباهاً إليها وتردداً عليها .

ولم ينس البحتري قط في حياته التي طالت إلى ثمانين عاماً صاحبته هذه لانها كانت الاولى . وودّ حين رحل الى العراق أن تصحبه فلم تفعل . وربحت علوة بهذه الصلة ثلث ديوان البحتري أو اقل قليلاً ، وربحت حلب والظهران وقويق وبطياس وباب قنسرين كثيراً من الذكر اللاهف في شعره ، وكان خليقاً ببغداد وقصورها ودور لهوها ان تنسيه صاحبته ولكنه ظل يذكرها ويتقدم باسمها أو بكُنىً كثيرة عنها في قصائد مدحه للخلفاء والادباء والاصدقاء . ثم تحولت علوة من جسد إلى طيف وخيال ، فلما هزلت فيه عوامل الصبوة تحوّل ذلك الجسد والطيف إلى رمز للوطن وذكريات للشباب :

تطور علاقته واحساسه بعلوة

نُلبحُ من الغرام إذا اعترانا — وأبرح منه ألا يعترينا
ومن سقَم مبيت المرء خلواً — بلا سقم يبيت له رهينا
تَشركنا العيش ماندع التصابي — لواجدةٍ ولا تدع الحنينا
إذا بدأتْ لنا أسلوبَ شوق — رأينا في الصبابة ما تُرينا

ويقول :

خيال يعتريني في المنام — لسكرى اللحظ فاتنة القوام
لعلوة إنها شجن لنفسي — وبلبال لقلبي المستهام

سلام الله كل صباح يوم عليكِ ومن يبلغ لي سلامي
لئن قلّ التواصل أو تمادى بنا الهجران عاما بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيد إليك وزورة لك في اكتتام
أأتخذ العراق هوىً وداراً ومن أهواه في ارض الشآم

•

وحين انتقل البحتري من حلب الى بغداد كانت له نصف الجرأة على مسارح اللهو ، قد أطلقته حلب وشدّته منبج فهو يترجح بين الاقدام والاحجام ويحس به ، أعمق إحساس ، ولم يحسّ بهذا الشعور احدٌ كما أحس البحتري حين يصف ما بين الحلقين بقوله وهو يصف لقاء الفتح بن خاقان للأسد :

فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كرّ نحوك مقبلاً ولم ينجه ان حاد عنك منكبا

وما أظن هذا المعنى قد لان لشاعر كما لان للبحتري لأحساسه به من دخيلة نفسه .

ثم اندفع البحتري الى شُبَه الحضارة فشرب ولكن وراء ستار من التصون والتخفي . ثم دعا أصدقاءه الى الشرب في الخفاء ، وصحبهم الى الديارات البعيدة ، واستهدى الاشربة في سرّ من الاصدقاء والخمارين واستعان بالعمال . ولم تصبح أقواله في الخمر تقليد شاعر وإنما هي تدل على ذوّاق شروب . وليس أبلغ في الدلالة على تصوّنه وتخفيه من قوله :

اليوم دجن والدار قطربل فيها عن الشاغلين منتزح [1]

(١) في قوله : عن الشاغلين منتزح قلب اذ الاصل عن النازحين شغل ، وهو أمر جائز في اللغة .

وإن أردت اجتراح سيئة   فها هنا السيئات تجترح

وهناك رسالة منه لمحمد بن يزيد المبرد يدعوه فيها الى مجلسه يوم السبت ويوصيه بالاستتار حين مجيئه لئلا يراه الرقباء :

يومُ سبت وعندنا ما كفى الحرّ طعامٌ والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيـ .ا   حٌ فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن   كنت تهوى وإن جفاك الحبيب
فائتنـا يا محمدُ بنَ يزيدٍ   في استتار كي لا يراك الرقيب
نطرد الهمّ باصطباح ثلاث   مترعات تُنفى بهن الكروب
إن في الراح راحة من جوى الحبّ وقلبي الى الأديب طروب
لا يرعك المشيب مني فإني   ما ثناني عن التصابي المشيب

وشيء آخر هامّ في هذه الرسالة وهو انه انما يشرب ليدنيه الشرب من حبيبه الذي جفاه ، ويدنيه منه في أحاديث الذكريات ، وهي طريقة للتسلي ، ولكنها في نجوة عن عيون الناس وبين الاصدقاء المتصونين .

وقد أخبر جحظة البرمكي النديم المغني انه ذهب معه ذات مرة إلى دير قُنى ، فلما بلغاه قال له البحتري : ويحك يا جحظة ! أهذا دير قنى وهو من الحسن والطيب على ما ترى وأنت أنت ، وطنبورُك طنبورك ؟ فهل لك ان نقيم به اليوم فنشرب ونطرب وننعم ونلعب ! فقال له جحظة : نعم ! ولم يكن معهما نبيذ ، فسألا عمن يقرب منهما من العمال ، فلما عرفا أنه عيسى بن فَرّخان الفارسي كتب اليه البحتري :

يا بن عيسى بن فَرّخان وللفر   س بعيسى بن فرّخان افتخارُ

قد حللنا بدير قنى وما نبـ ـغي بِقرًى غير ان يكون عُقار
فاسقٍ من حيث كان يشرب كسرى عصبـــةٌ كلهم ظِماءٌ حِرار
من كميت تولت الشمس منها ما تولته من سواهـــا النار

قال جحظة : فوجه الينا عيسى بن فرخان عشرين دناً شرابا ، ومائة دجاجة ، وعشرين حملا وفاكهة ، وعملتُ في الأبيات لحناً ، فلم نزل نشرب عليه يومنا وليلتنا (١) .

وهكذا وقع البحتري في شُبَه الحضارة حين فارق منبج فلقي امرأة السوق وعرف الخمر والغناء ثم فهم مفــاهيم الالحاد وكاد ينغمس .

المزاج الحاد

وصحب هذه العاطفة المشبوبة المتصونة مزاج حادٌّ يمعن في الاسراف ، يصلب إن أراد الوفاء فلا يتحول ولو كان فيه الهلك والدمار ، ويسرع في التغير والتقلب ولو كان فيه العيب والشنار . وأمر البحتري في ذلك أمر عجيب إذ هو وفيٌّ مؤمن بالوفاء اخلص الايمان ، مذبذب متردد الى حد يهون عليه فيه الجحود والكفران .

بقي على حب علوة – كما علمت – فلم يردعه عنها عذل او يحوّل قلبه سنٌّ او غربة حتى اصبحت معه كالرئيّ الذي يصحب الشاعر فيوحي اليه الشعر في خرافات العرب ، وثبت على حب المتوكل وحب وزيره الفتح بن خاقان ، وصرّح

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٥٨ .

في رثائه لهما ورثائه للمتوكل خاصة بما لا يؤمّنه من الخوف أو ينجيه من العقاب ، ومن ذلك قوله في رائيته :

وهـل أرتجي ان يطلب الدمَ واترٌ
يَـدَ الدهر والموتور بالدم واتِرُهْ

أكان وليّ العهـد أضمر غدرة
فمن عجب ان وُلي الأمر غادرُه

فلا مُلّيَ الباقي تراث الذي مضى
ولا حملت ذاك الدعاءَ منابره

هذه القصيدة التي قال فيها ابو العباس ثعلب : ما قيلت هاشمية احسنَ منها ، وقد صرح فيهـا تصريح من أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب (١) . بل ان البحتري كان كلما طال البعد بينه وبين المتوكل والفتح عطف عليهما وارتاح في شعره لذكّرهما . ومن ذلك قوله في بعض ممدوحيه :

تداركني الاحسان منك ونالني — على فاقة ذاك الندى والتطوّل
ودافعتَ عني حين لا الفتح يرتجى — لدفع الأذى عني ولا المتوكل

وقوله :

مضى جعفر والفتح بين موسّدٍ — وبين قتيل في الدماء مضرّج
أأطلب انصاراً على الدهر بعدما — ثوى منهما في الثوب أوسي وخزرجي

•

وبينما يفي لهؤلاء ولأبي تمام هـذا الوفاء ويُخطر بنفسه امام قتلة الخليفة ووزيره وفيهم ولي العهد الذي صار خليفة

(٢) زهر الآداب ج ١ (ط ٢) ص ٢٦٢ .

إذا به يقف من بعض من مدحهم مواقف متضادة تشين هذا الخلق فيه او تنفيه عنه حتى رموه بخبث الأصل والفرع واتهموه بكفر الاحسان . وقد رماه احمد بن خلاد واحمد ابن ابي طاهر بأشنع الهجاء ، فقال فيه ابن خلاد : لا اعرف احداً أخبث اصلاً وفرعاً ولا اكفر لاحسان من البحتري ! واستدل على صدق قوله بدخوله بالنفاق على الخلفاء واحداً بعد الآخر وبالذم بعد المدح . وقال ابن ابي طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا أسقط ! واستدل على صدق قوله بموقفين له متضادين ، عاد في الثاني بهجاء ابن الحصيب وكان البحتري مدحه من قبل فأحسن اليه ابن الحصيب ووصله بالخليفة فنال جوائزه .

ثم نسبوا الى البحتري انه هجا نحواً من اربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان ، وهما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وقالوا إن حاله في ذلك تنبيء عن سوء العهد وخبث الطريقة .

وخضع البحتري لهذا المزاج الحاد والطبع المتقلب فنقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم ونقلها الى مدح غيرهم وأمات اسماء من مدحهم أولا . وقد كان البحتري في غنى عن ان ينقل مدائحه من اشخاص لآخرين لانه كان واسع الذرع بقول الشعر مقتدراً على التوسع

فيه ، ولكنه استجاب لطبعه . ولعله رأى أولئك الممدوحين القدماء لا تستحق اسماؤهم ان تخلد في قصائده فنقلها الى غيرهم ، ثم لعله رأى ايضاً ان هؤلاء الممدوحين الجدد لا يستحقون كدّ الخاطر فنقل اليهم قصائده القديمة ، ولعل ذلك كله حدث منه في سنوات إجباله التي سنشير اليها فيما بعد .

وأقبح مما ذكر كله ما اتهمه به احمد بن ابي طاهر من التطرف ومجاوزة الحد ، وهو انه نصب نفسه فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس ومصادرة أموالهم ، وذلك حين كان متمكناً لدى الخلفاء . ومن ذلك قوله للمنتصر وهو يهجو ابن الخصيب :[1]

يا ناصر الدين انتصر موشكا ... من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال إن ... نظرت في باطن أحواله
والرأي كل الرأي في قتله ... بالسيف واستصفاء أمواله

وابن ابي طاهر يعقّب على هذه الفتوى بسبّ البحتري قائلاً : كان فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس ، نزحه الله !

وقد عاد البحتري بمثل فتواه هذه فأفتى المعتز في بُغا الصغير قائلا :

جمع الهزيمة والاباق بفرّةٍ ... مذكورة أخذته في الاقوام
يرجو الامان ولا أمان لغادرٍ ... شق العصا وأحلّ كل حرام

•

وهناك مظهر آخر لهذا الطبع الحاد في البحتري ، ذلك انه كان يغضب حين ينشد القصيدة وفيها ما فيها من المحاسن

(١) الموشح، ص ٣٣٧ .

التي تعب في الحصول عليها – كان يغضب حين لا تبدو من سامعيه هزة الاستحسان فيقول لهم : ألا تسمعون ! ألا تعجبون ! ... وقد أجمع مؤلفو الأدب على أن ينظروا الى الشاعر بسبب هـذا المظهر نظرة خلقية لا نفسية فاتهموه بالغرور . واي شاعر لم يكن مغروراً وهو خلق الشعراء جمعين ؟

اتهموه بالغرور وكان يجب ان يتسع بهم البحث فينظروا إليه من الناحية النفسية ، وإذن لرأوه رجلا ملتهب الشعور ، حاد الطبـع . وكان شعوره يزداد التهاباً وطبعه يزيد حدة حين ينشد ، اي حين تلتئم القصيدة في نفسه وتتجمع معانيها وتصير كائناً حياً ، فيريد أن ينقل مشاعره الى غيره من الناس ، والناس قـد عوّدوا الشاعر ان يهتزوا له وان يستحسنوا قوله وان يستعيدوا ما برزت محاسنه ، بل تعودوا ان يكملوا للشاعر البيت ويسبقوه الى لفظ القافية ، وتعودوا ان يعلقوا على المحاسن بالثناء وعلى المقابح بالمقاطعة ، فكان مما يغضب البحتري ان يرى خموداً وهو يفيض ، وان يحسّ جمودا وهو يثور ، فحدثت منه الحركات والاشارات في بعض مواطن الانشاد . وصاحب الموازنة يدعي ان ذلك لم يكن منه الا اذا شرب وأنس وأنشد شعره ، فقال : ألا تسمعون ! ألا تعجبون ، واعتذروا له عما يفعل بمكانه وموضعه العظيم قائلين : لم لا يفعل ذلك وقد اسقط في ايامه اكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخيرهم ، وانفرد بأخذ

جوائز الخلفاء والملوك دونهم ؟ [١]

والباحث المدقق لا يرى على الشاعر عيباً فيما يفعل من هذا ، ولا ضرورة للاعتذار بمكانة البحتري ، لأنه ما من انسان يستطيع ان يعبّر بلغته فقط عما يريد مهما قويت دلالتها ، وان أية لغة لا تستطيع الدلالة على جميع صور العواطف والافكار دون الاستعانة بحركة الوجه او الايدي او تكييف الصوت [٢] . هذا في الحركات والاشارات. أما في طلب الاستحسان فإن البحتري كان يغضب حين يتصور السامعين نياما من الجهل والبلادة فهو يهزهم ليستيقظوا ، وهو يعبّر لنا عن هذا العمل بقوله :

أهز بالشعر أقواماً ذوي وسنٍ في الجهل لو ضُربوا بالسيف ماشعروا

•

ومن وراء هذا الطبع الحاد الذي ظل يلازمه حتى يبس وشاخ جُبر على ان يفارق العراق ويسير مدلجاً الى بلده ، وقد كان يعلم ان الحكم في بغداد قد صار للجماهير ، وان اتباع احمد بن حنبل قد تشددوا في الدين وعاقبوا على الشبهة ، وكانت فيه حيلة ومقدرة على ان يبتعد عما يغضب اتباع هذا الامام ، ولكن طبعه الحاد وقف سداً امام الحيلة وامام التجارب فأزال الرجل عن الصواب في نظر الجمهور مهما قيل

---

(١) الموازنة ص ٥ .

(٢) مقدمة الحضارات الاولى ص ٤٢ .

انه لم يخطىء [1] ومهما قيل انه ارضى الفنّ وصدق الحقيقة . وقد انساق الى طبعه وأنشد ما أملاه عليه ، فوقف ينشد في رثائه لأبي عيسى بن صاعد هذه الروائع ذات الصيت [2]:

أخيَّ متى خاصمت نفسك فاحتشد
لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الاشياء شتى ولا أرى التـ
ـجمع إلا علةً للتفرق
أرى الدهر غولاً للنفوس وانما
يقي اللهُ في بعض المواطن من يقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لِمْ مضى وعرّج على الباقي فسائله لِمْ بقي
ولم أر كالدنيا حليلة وامق محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا وهي صنعة واحدٍ فتحسبها صنعيْ حكيم واخرق

ومهما يكن البيت الاخير قد قرر ان الصانع واحد في شطره الاول فإن شطره الثاني حاول الشك ، او عبر عن عقيدة وثنية . ولو كان الحكم للعقلاء لما رأوا عليه ذما ، ولكن الحكم قد صار للجمهور ، وبذرة واحدة من الشر أو الحسد او خطأ الفهم تلد في هذه البيئة الخصيبة فوق ما تلده الجراثيم .

والبحتري على ذلك شاكّ وإن لم يشكّ ، وثنوي وإن كان موحدا ، وحسبه ذنباً لدى الناس انه يعلم عقيدة الثنوية

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٣٣ .
(٢) الموشح ص ٣٤٣ .

ويصورها هذا التصوير الفني البارع ١ . وباتت بغداد تنوي به شراً ، وبات هو يحاسب طبعه وتجاربه ، فيجد الاول قد غلب ، وانه لا مخلص منه إلا اليه ، فصمم على الرحيل واسرع في الطريق ومعه ابنه ابو الغوث في آخر رحلة له الى الشام .

ولم تكن هذه هي المرة الاولى للبحتري في خوض هذه الريب ، بل كانت هذه واضحة في أنه بريء ، ولكنه قد سبق ان اتهموه بالتنقل من مذهب الى مذهب يدور مع الدول ، ويقولون انه عوتب في قوله في بعض قصائد مدحه :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

وهو في هذا يرى ان القرآن مخلوق ، ويقول بقول القدرية أهل الاعتزال ، فقالوا له : أصرتَ قدرياً معتزلياً ؟ فقال : كان هذا ديني في ايام الواثق ، ثم نزعت عنه في ايام المتوكل . فقيل له يا أبا عبادة ، هذا دين سوء يدور مع الدول(٢)

بعض الاحتيال

على ان هذا الطبع لم يمنع البحتري ان يحتال لبعض اموره ، إلا ان اكثر ما كان احتياله كان ليغذي به ذلك الطبع المنحرف ويسدّ نهمته ، فكان يفعل الحيلة من اجل

---

(١) يعتقد هؤلاء أن (ارمزد) اله الخير وان (اهرمان) اله الشر وقد خلق أهرمان من تفاعل قوى الطبيعة يوم خلق ارمزد الدنيا .

(٢) الموشح ص ٣٤١

نفسه . وقد رأى في اول انتقاله الى العراق ان يغير لقبه الذي كان مشهوراً به في منبج وباديتها وفي حلب وهو « أبو عبادة » . وذلك انه احس بخشونته على الحضارة التي هو مقدم عليها ، فرأى ان يزيل بتغييره عنجهية البداوة (١) ويتقرب من اهل الحاضرة ، ورأى ان يتكنى بابي الحسن او أبي حسن .

ولسبب آخر أهم من ذلك أراد ان يغير لقبه ، هو ان يتقرب بهذه الكنية الجديدة الى جماعة من الكتاب واهل النباهة من الشيعة ، وكان بالعراق من كبارهم في عصره عدد كبير . ومع أنه لم يوفق في هذا التغيير فقد انطلقت عليه الكنيتان ، ولكن « ابو عبادة » صارت اشهر لان الخليفة المتوكل امره ان يبقى على كنيته القديمة واحتج له بانها اسهل لاشتهاره بها ، وستر المتوكل كراهته للشيعة بحجته هذه التي أبداها .

•

وقد كنا في شوق ولهفة ، لأن نعلم شيئاً من شعره في باعة البصل والباذنجان بسوق منبج (٢) ذلك الشعر الذي اتهموه بقوله في ايام صباه ثم ضاع . قال صالح بن الاصبغ التنوخي المنبجي : رأيت البحتري ها هنا عندنا قبل ان يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب — واوما الى جنبتي المسجد — يمدح اصحاب البصل والباذنجان وينشد

(١) الموازنة ص ١١
(٢) طيف الوليد ص ١٣٦

الشعر في ذهابه ومجيئه .

وكان ذلك الشعر يفيدنا من الناحية الفنية التي هي الغرض الأصيل من كتابنا والتي سنعرض لها عما قريب ، لنعلم منه سيرة شعره ومعراجه في سلم الرقي ، ولكنا فقدناه ، ولو كان خبره صحيحاً لكان الأسف له بالغاً ، ولكنا نكتفي من هذا الخبر بالاستدلال به على انطباعه على الحيلة ليصل بها الى إرضاء طبعه وسدّ خلته ولو كان بمدح السوقة من الناس .

ويرى بعض العلماء ان انتسابه إلى طيىء كان حيلة أوجبت له عطف كثير من الطائيين في زمانه ، وعطفت عليه قلب أبي تمام خاصة . ولعل ابا تمام كان اكبر ربح في تحزب البحتري لطيّ ، فظلا منذ اجتماعهما وافتراقهما متصافيين على القرب والبعد متحابين متلائمين ، يجمعهما الطلب والنسب المكتسب (١)

ولم يكن في زمانهما شاعر مشهور يفد على الملوك ويجتدي بالشعر وهو ينتسب الى طيىء سواهما ، وقد اعان كل منهما صاحبه على ما يرجوه حتى سدا الابواب على الشعراء .

ولا يخفى ان الانتساب الى طيّ يمد الشاعر بكثير من معاني الفخر بالجود والشجاعة ، ويقوي قلبه على اقتحام هذا الباب دون مراقبة أو حساب . ومهما ضاعت قيمة آبائه الأدنين فان صلته العليا بالقبيلة لا تحرمه من مفاخرها .

(١) الموازنة ص ٢٢

ولم يجد البحتري بدأً من الوصول الى الخلفاء بالحيلة والالحاح على دق بابها ، وكان البذل أقوى وابين عند اتصاله باول خليفة ، أما بعد هذا الاول وهو المتوكل فقد اصبح الأمر هيناً ، لانه كان قد وصل واشتهر ولم يبق لأحد من الخلفاء غنى عنه . وفي نفس الطريق التي سلكها ابو تمام للخلفاء من بدء الصلة بالكتّاب والعمال والوزراء سار البحتري فاتصل بأبي الحسين علي بن المنجّم نديم المتوكل فوصله بالوزير الفتح بن خاقان ، ثم وقفت به الصلة عند هذا الوزير زماناً طويلاً ، فجعل يرجو الفتح ويعاتبه ، ويلح في الرجاء والعتاب حتى أوصله للمتوكل (١) ، وان كان البحتري بلغ بذلك ما تمناه فان موقف الفتح منه وموقفه من مدح الفتح وعتابه والالحاح عليه في الرجاء قد نهب من معاني البحتري جملة من الشعر هي من اروع ما قال . قال يمدحه :

أما اياديك عندي فهي واضحة ... ما إن تزال يدٌ منها تسوق يدا
اصبحتُ اجدي على العافين مبتدئاً ... منها وما كنت إلا مستبيح جدا
ومن يبتْ منك مطوياً على أمل ... فلن يلام على إعطاء ما وجدا
لِمْ لا أمدّ يدي حتى انال بها
مَدَى النجوم أذا ما كنتَ لي عضدا

وقال وقد اعتلّ الفتح :

ولما اعتلّ اصبحت المعالي ... محبّسةً على خطر مهول
ألم ترَ للنوائب كيف تسمو ... إلى أهل النوافل والفضول

(١) البحتري ص ٦٣

وكيف تروم ذا الشرف المعلى　　وتخطو صاحب القدر الضئيل
وما تنفك أحداث الليالي　　تميل على النباهة للخمول

ويقول متوسلاً به إلى المتوكل :

فداؤك أقوام سبقتَ سَراتهم　　إلى القمة العلياء والخلق السمح
وعدتَ فاوشِكْ نجح وعدك إنه　　من المجد إعجال المواعيد بالنجح
وانت ترى نصح الامام فريضة　　وإخباره عني سبيل من النصح
له مكرمات يقصر الوصف دونها　　وأبلغ مدح يستعار له مدحي

فلما اتصل البحتري بالخلفاء لم يشأ أن تكون آلته عندهم الشعر وحده ، إذ الشعر له اوقات ومواسم ، فاتخذ المنادمة حرفة ، وضم بها إلى جاهه الفني جاهاً آخر من الصحبة والمداومة عليها ، ولا يخفى ما في المنادمة من الخطر ، وهي لا تكون إلا في أوقات السرور ، او اوقات الهم التي تحتاج إلى ما يذهبه ومن يذهبه ، وقد اكسبته هذه المنادمة جاهاً عريضاً يعرفه تاريخ الادب في صلته بالفتح وصلته بالمتوكل ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى قول احمد بن طاهر وهو أنه نصب نفسه فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس . . وما نظن البحتري قد اجترأ على ذلك إلا من اتكاله على شخصية النديم لا الشاعر ، وقد بلغ المكانة التي يقول هو فيها :

ولما حضرنا سدة الاذن أخرت　　رجال عن الباب الذي أنا داخله

ولم تنقطع به حيلته عند باب ممدوح فهو يمدح ابن الزيات بدقة كتابته وتفننه فيها . وسنعود الى الكلام عن هذا المدح في موضع آخر . ويمدح ابن الفرات بتجويد الخط ، واغرب

ما فعله دخوله على المعز بحيلة لم يسبقه احد بالدخول بها على ملك بل على أب ، فقد جعله البحتري وسيلة لابنه عبد الله ابن المعتز ، وفعل ذلك أكثر من مرة ، ولكنـه لم يفعل الا لثقته في حب المعتز لابنه حباً يغفر للشاعر خروجه على التقليد . والبحتري نفسه يحس بهـذا الخروج ولكنه يلطف فيه فيبلغ مراده إذ يقول :

يا واحد الخلفاء غير مدافـــع ... كرماً وأحسنهم يدا وصنيعـا
انت المطاع فان سئلت رغيبة ... ألفيت للراجي نداك مطيعـا
إني أريدك أن تكون ذريعة ... في حاجتي ووسيـــلة وشفيعا
ما سالها احدٌ سواي خليفـة ... في الناس مرئياً ولا مسموعا

انتظام الدراسة

ويبدو من اخبار البحتري أنه لم يحتطب في دراسته كما احتطب أبو تمام (١) بل سار في منهج قويم غير مضطرب ، فمن تجريب القول في السوقة الى الكتاب فالوزراء ثم الخلفاء ، ومن مسايرة الطبع إلى إضافة التصنيع ثم إلى التعقيد وإحكام الرأي . وكان سيره في الدراسة متبعاً خطواته في الرحلة . فمن البادية ذات الصمت والصفو ، إلى حلب الجادة اللاهية ، إلى حضارة بغداد ودنيا العراق .

وليس معنى هذا أنه حين قال في الخلفاء أمسك عن ذكر غيرهم ، أو حينما استطاع أن يصنّع ويعقد خالف طبعه جملة ،

(١) عبقرية ابي تمام ص ٢٥

وانما من المسلم به أنه حين اتصل بالعلية والكبراء لم تكن آراؤه ولا مشاعره ولا قدرته على النسج كما كانت من قبل ، ولكن فنه ارتقى لا محالة ، وأصبح شعره حتى الذي يقوله في غير الطبقة العليا حافلاً راقياً .

وأول درس يتضح لنا أن البحتري قد تلقاه كان يوم اتصل بأبي تمام في حمص . ولم يكن أول درس على إطلاق القول ، لان البحتري لقي أبا تمام وأداة الشعر قوية عنده ، بل هي بالغة الى حد إثارة السامعين . وقد أثارت أبا تمام نفسه قصيدته التي القاها في حضرته ، وحفظها أبو تمام لاول مرة ثم ادعاها ليكدر على البحتري خاطره ، أو ليعاقبه على تقحمه عليه مواطن الانشاد ، ثم عاد فافهمه انه يداعبه .

واستطاع البحتري بهذه الدرجة في الانشاد ان يجد أبا تمام ، وان يجد فيه ضالة ينشدها ، أو حظاً لم يكن يتوقعه . ورأى في اثناء مداعبة ابي تمام له ان يتصل به فلا يبطىء ، فاتصل به بسببين : احدهما انه طائي ، وثانيهما انه تلميذ يريد نصيحة الاستاذ . وسبب ثالث يقوله بعض الرواة هو انه فقير يريد العيش او طموح يريد الغنى فتوسط له ابو تمام لدى اهل المعرة فأعانوه .

وقد حفظ لنا تاريخ الادب وصية ابي تمام للبحتري في صناعة الشعر حين سأله كيف يصنع الشعر ، ومع ان الوصية مشهورة الا اننا نسجلها هنا لأهميتها [١] .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥١ .

قال الوليد بن عبيد البحتري : كنت في حداثتي اروم الشعر ، وكنت ارجع فيه الى طبعي ، ولم اكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت ابا تمام وانقطعت فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : يا ابا عبادة ، تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم . واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه وقت السحر ، وذلك ان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم . وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق . فإذا اخذت في مدح سيد ذي اياد فأشهر مناقبه واظهر مناسبه وابِنْ معالمه وشرّف مقامه ، ونضّد المعاني واحذر المجهول منها ، واياك ان تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد . واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله

قال البحتري : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة .

وفي هذه النصيحة ما يهم الدارسين ، فقد كانت استجابة لما طلبه البحتري . وصاحب العمدة يروي ايضاً ان ابا عبادة

قال : كنت في حداثتي أروم الشعر ... [1] بمثل ما روى زهر الآداب ، وأهم ما فيها بعد ذلك ان ابا تمام حرّض البحتري على العناية بالمجانسة بين اللفظ والمعنى ، ثم باظهار المعنى وتنضيده ، والمباعدة عن الالفاظ الرديئة ، ثم اتباع عمود الشعر ، وهو ما عبر عنه ابو تمام بقوله : وجملة الحال ان تعتبر شعرك بمن سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه . أما ما عدا ذلك كاختيار وقت للانشاد وتقسيط الزمن بين الراحة والقول فذلك أمر لا يهم البحتري لانه رجل طبع وسليقة يقول حين يثور طبعه ويُجبل حين يخمد . وهو ايضاً لا يهم ابا تمام لأنه يشق على نفسه في الصناعة حتى يرى الاحتقان في عينيه . وقد اخذ البحتري بمشورة استاذه وقال : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة .[1]

وقد يعترضنا هنا سائل يقول : ولماذا تتلمذ البحتري على ابي تمام وقد استوت له أداة الشعر ، وكان يغنيه ان يقرأ شعر الأوائل والقدماء ، بل لعله قرأه من قبل وأحس بطبعه الميل اليهم دون طريقة ابي تمام ؟ واجابتنا على هذا السؤال فيها حجة ومقنع ، فان البحتري كان رجلا يعرف وجه الحيلة ويقدر الخطوة لقدمه . كان يعرف نفسه ويعرف انه شاعر مولد فلا غنى له عن تصفح اشعار المولدين لما فيها من التأثر بمعاني الحضارة الجديدة ، فاذا جمع الى فصاحة المتقدمين

(١) العمدة ج ١ ص ٩٢ .

صنعة المتأخرين اشتد ساعده وبعد مرماه فلم يقع دون الغرض . وهذا ابو تمام مدرسة المحدثين بتمامها ، مادة وروحاً واعتدالاً وانحرافاً ، فرآه البحتري ضالته – كما قلنا – وعثر فيه بحظه فسمع الى نصحه وعمل به .

ولم يكتف البحتري بسماع النصيحة بل لزم معلمه يسأله وهو يجيبه ، ويسمع إنشاده ويذهب في تقليده عند حدود طبعه وقدرته . ويروي في بعض دروسه العملية التطبيقية أن ابا تمام انشد البحتري لنفسه في صفة فرس ، واستطرد يهجو خالد بن أدريس السامي(١) فتبعه البحتري يقلده قائلاً يهجو ابن الهشيم :

يا قبر يحيى لاعدمتَ تحية ... من كل ذات ترنم وتبسم
فيم المرام لرأي صاحب همة ... قُتلتْ بها نوب القضاء المبرم
أو ما علمت بأن من رام العلا ... بالسيف في حَمَس الوغى لم يسلم
ما زال يعتل بالأسنة والظبا ... حتى انثنى واديمه كالعندم
ولقد رأيت البيض تأخذ درعه ... فذكرت عِرض محمد بن الهيثم

فبينا هو يصف ويمدح اذا هو ينتقل فجأة الى ذم محمد بن الهيثم . وقد قلد البحتري استاذه هنا فأجاد ، وربما كان أجود منه في الانتقال لما أراد الاستطراد . وهناك محاولة اخرى له بمعجم الادباء ، فأليه (٢) .

ومن الغريب أن تكون نصيحة ابي تمام لتلميذه في هذ

---

(١) عبقرية ابي تمام ص ١١٠ العمدة ج ٢ ص ٣٢ الديوان ص ٦٧٢
(٢) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٥٠

قال : كنت في حداثتي أروم الشعر ... [1] بمثل ما روى زهر الآداب ، وأهم ما فيها بعد ذلك ان ابا تمام حرض البحتري على العناية بالمجانسة بين اللفظ والمعنى ، ثم باظهار المعنى وتنضيده ، والمباعدة عن الالفاظ الرديئة ، ثم اتباع عمود الشعر ، وهو ما عبر عنه ابو تمام بقوله : وجملة الحال ان تعتبر شعرك بمن سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه . أما ما عدا ذلك كاختيار وقت للانشاد وتقسيط الزمن بين الراحة والقول فذلك أمر لا يهم البحتري لانه رجل طبع وسليقة يقول حين يثور طبعه ويُجبل حين يخمد . وهو ايضاً لا يهم ابا تمام لأنه يشق على نفسه في الصناعة حتى يرى الاحتقان في عينيه . وقد اخذ البحتري بمشورة استاذه وقال : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة .[1]

وقد يعترضنا هنا سائل يقول : ولماذا تتلمذ البحتري على ابي تمام وقد استوت له أداة الشعر ، وكان يغنيه ان يقرأ شعر الأوائل والقدماء ، بل لعله قرأه من قبل وأحس بطبعه الميل اليهم دون طريقة ابي تمام ؟ واجابتنا على هذا السؤال فيها حجة ومقنع ، فان البحتري كان رجلا يعرف وجه الحيلة ويقدر الخطوة لقدمه . كان يعرف نفسه ويعرف انه شاعر مولد فلا غنى له عن تصفح اشعار المولدين لما فيها من التأثر بمعاني الحضارة الجديدة ، فاذا جمع الى فصاحة المتقدمين

(١) العمدة ج ١ ص ٩٢ .

ولم يتجانف البحتري عن طلب العلم بالشعر من مظانه - والشعر خاصة دون العلوم الاخرى - وجعل يجد في السير حتى يجد . وقد حكوا عنه لقاء بعض اعلامه غير ابي تمام لقاء الدارس المستعلم كعلي بن الجهم وابن الرومي ، ولقاء بعض المشتغلين به كالمبرد وثعلب وغيرهما من ادباء العمال وافاضل الكتاب . وحكوا انه فاوض ابن الجهم في الشعر (١) حتى اذا جاءا معاً على ذكر اشجع السلمي الشاعر نقده ابن الجهم بقوله « انه كان يُخلي » فلم يفهم البحتري ماذا اراد ابن الجهم بكلمة « يخلي » ، ولكنه تظاهر بالمعرفة وأنف ان يسأله عنها ، فلما تفرقا وخلا البحتري الى نفسه جعل يفكر فيها ويستعرض شعر اشجع فاذا هو يعثر على المعنى . فقد رأى ان كثيراً من ابيات ذلك الشاعر تمرّ مغسولة ليس فيها بيت رائع ، فعلم حين ذاك معنى كلمة « يخلي » وقد علمها كما رأيت بالمراجعة وطول الدراسة والاتكاء على النفس وهي حال دارس يريد النجاح .

وقالوا ايضاً انه قد اشتهى ان يرى ابن الرومي ٢ ثم اجتمع به وتدارسا ، فقال البحتري : عزمت على ان اعمل قصيدة على وزن قصيدتك الطائية في الهجاء ، فنهاه ابن الرومي لان الهجاء ليس من عمله . ولكن البحتري رجاه ان يتعاون معه ، فتعاونا ، فعمل البحتري ثلاثة ابيات وعمل

---

(١) العمدة ص ١٣٧ ج١

(٢) الموشح ص ٣٣٨ .

الثوب التقليدي ، وأبو تمام نفسه لا يؤمن بالتقليد ولا يعمل به . ولو أشير عليه بما أشار لرفض ، لانه لا وقت للشعر عنده ، وبديهته تعينه على القول وتحسنه كلما ضاقت به حلقة الكرب ، ولا يجانس بين اللفظ والمعنى ويشين شعره بكل غريب رديء ، وهو فوق ذلك كله يعتبر القياس بما سلف من شعر الاولين خرافة الجمود ، ولم يسمع لكلام العلماء في شعره !

ولكنك من وراء هذه الغرابة في النصيحة تدرك ذكاء أبي تمام وموضع البحتري . فان الاستاذ قدر التلميذ قدره فاخلص له النصح بما يوافقه ، وجازت النصيحة على البحتري فعمل بها فوقف على سياسة الشعر كما قال على ان البحتري كان أيضاً على ذكاء ، وكان ابو تمام مجاوزاً قدر البحتري ، فحين لزمه لم يلزمه دون فهم وحذر . وقد كان يسمع ملامة الناس له على الافراط في البديع والغريب ، وعلى الاحتطاب في الانتاج فيقع منه المتباين ، وعلى اخفائه المعاني وراء المعاظلات والاشارات ، فتورّع البحتري من تلقاء نفسه عن أن يخوض مخاض أبي تمام . وفي ظني أنه لو اراد اتباع أستاذه لما استطاع ، لأنه لم يكن له محفوظه من الشعر والالفاظ ، ولم يكن له قلبه الجريء على إفساد الصنعة أو السخرية بعمود الشعر – كما يقولون – فلو تم للبحتري الحفظ واعجبته الصناعة لمنعه خوفه وطبعه من الاقدام .

بنفسه ويتبع الشعراء ، واما الذي هو أرقى منه فله شعر ولكنه ينتحل ما هو اجود من طبقته ، واما الثالث المدعي فانه لا يحسن شيئا جملة ، وهذه – في نظره – طبقة السراق [1] .

•

هذا رأيه في الشعراء ، اما رأيه في الشعر فقد ابداه لاحد احفاد ابن طاهر في قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يكفي عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي اشارته وليس بالهذر طولت خطبه

وقد ذهب الناس وراء هذه الابيات مذاهب [2] فقالوا ان البحتري مصيب لانه لم يسر على المنطق في شعره ، فدافع عن نفسه بان الشعر غير خاضع للمنطق وانه يسير في ذلك سير الاولين ، وما كان امرؤ القيس من المنطقيين ولكن الجرجاني شيخ الصناعة يوضح هذا الرأي فيقول « اراد كلفتمونا ان تجري مقاييس الشعر على حدود المنطق ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق حتى لا ندعي الا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجىء الى موجبه ، مع ان الشعر يكفي فيه التخيل والذهاب بالنفس الى ما ترتاح اليه من التعليل ، ولا شك انه الى

(١) العمدة ج ٢ ص ٢١٨
(٢) الادب التوجيهي ص ١١٤

ابن الرومي ثمانية ، فلم يلحقه في الهجاء . ونحن نتخذ من هذه القصة شاهداً على انه كان يحاول ان يقلد الشعراء ويحاول ان يقول مثل قولهم في روي الحروف الصعبة ، ويتعلم منهم كيف ينشئون لعله يدري السر ويتبع الاثر .

وهذا رأي نخالف به رأي المرزوقي او نكمله ، فقد قال في مقدمته لشرح حماسة ابي تمام [1] : ان الشعر الجيد يقوله من لا يعرف نقده ، وعلى ذلك كان البحتري لانه فيما حكي عنه كان لا يعجب من الشعر الا بما يوافق طبعه : معناه ولفظه . وهذه حكايته مع ابن الرومي تثبت ان البحتري كان يذهب وراء ما لا يجيده ولا يوافق طبعه ليتعلمه .

وهكذا ظل البحتري يدرس شعر القدامى والمحدثين حتى استطاع ان يبدي رأيه فيهم ، وكان يرى اجمالياً ان الاوائل حجة اما المحدثون فأحسن تعريفا [2] ، وهو لم يرَ ذلك الا بعد دراسته والثقة فيه ، ثم فصّل بعض آرائه في الشعراء ففضل هجاء الفرزدق على هجاء جرير لتنويعه فيه وتكرار جرير [3] . وقال في ابي تمام انه يغوص على المعاني . ونظر في شعراء السرقة فقسمهم في رأيه ثلاثة اقسام : مفحم وأرقى منه وصاحب ادعاء ، اما المفحم فهو من عجز عن الكلام فضلاً عن التحلي بحلية الشعر غير انه يخطر

---

(١) مقدمة المرزوقي ص ٩٥ .

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٦٠

(٣) مقالات مكانة الفرزدق للمؤلف .

وفي شعر البحتري ما يدل على انه كان لا يعني بمسائل العلم الا بما اتصل منها بالادب في قوة ، من تاريخ عام او خاص ، او ذيل من دقائق علم الحيوان ، او اشارة لمسألة عددية او حسابية . وما عـــدا ذلك فلا اثر له في ديوانه ، واظن هـــذه المعلومات كان يتلقفها البحتري من الشائع على افواه الناس . واما مسائل الاخلاق والدين والفقه فهي في شعره كثيرة لشدة الاتصال بينها وبين افكار الادب . وشعره يمثل اكثر ما يمثل بما اشتهر من اخبار التاريخ ، ولكنا نضرب هـــذا المثال لطرافته قال :

ولا بسنان بن المشلل عندما بنى هرميها من حجارة لابها

فهو يعلم من اخبار بناية الاهرام ان بعض حجارتها من الصوان من جنوبي مصر عند بلاد النوبة وهذا صحيح ، ويعلم أن بانيها سنان بن المشلل وهذا خطأ ، ولكنه كان الصواب الشائع في زمانه عن بناة الاهرام ، ودام هذا الخطأ حتى حملة نابليون (١)

ومن علمه بمسائل الحيوان قوله :

متيقظاً كالافعوان نفى الكرى عن ناظريه فما يذوق هجوعا

وقوله في حمّى الاسد :

وما الكلب محموماً وان طال عمره إلا إنما الحمى على الاسد الورد

ويقول ابو هلال إن هذا معنى مولد وشيء تدعيه العامة

(١) مادة هرم بالقاموس المحيط .

هذا النحو قصد واياه عمد ، اذ يبعد ان يريد بالكذب اعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الاكثار محله لان هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية ، وانما يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما وصف به ، والكشف عن قدره او خسته ورفعته او ضعته ومعرفة محله ومرتبته ، وكذلك قول من قال خير الشعر اكذبه . فهذا مراده ... » .

وللبحتري رأي في النثر قاله وهو يصف نثر ابن الزيات في قوله :

لتفننت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد
حجج تخرس الألد بالفاظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركن به غاية المراد البعيد

وصاحب العمدة يستنبط من بيت البحتري الذي يقول ومعان لو فصلتها ... ان البحتري يشهد بفضل الشعر على النثر [1] ...

---

(١) العمدة ج ١ ص ١٦٤

اعظم من تلك التغطية على من سواهم ، فقد اثر هذا التلاحق في دراسة الادباء لاشعارهم حتى لم يعد باستطاعة ناقد او اديب أن يفرد واحـداً من هؤلاء بالدراسة دون ان يشير إلى الآخرين ، وكأن كل واحد من هؤلاء الاربعة يكمل الاربعة .

ويرى كل دارس ان الطائيين اشد مداركة وتلاحقا ، وكان ابن المعتز وابن الرومي كذلك ، على ما بين كل اثنين من قرب وبعد ومن اتفاق واختلاف ، إلا اننا لو استطعنا الفصل بين ابن المعتز وابن الرومي فاننا لا نستطيع قط ان نفصل في الدراسة بين الطائيين ، فما السبب ؟

السبب أن البحتري لصق بأبي تمام موافقة ومخالفة فقرب منه حيناً وابتعد حيناً ولكن القرب والبعد مقيسان بأبي تمام لانه متأثر خطاه منفعل به ، ومن هنا تتبع الناس الرجلين جزءاً جزءاً في الموازنات ليوفقوا بينهما او يقربوا ، ولما كان ذلك التتبع المستقصي ليس من شأن كتابنا فاننا ندعه لتلك الكتب ونبحث عن الخطوط الكبرى التي ظهر فيهـا اثر التقليد واضحاً ، ولان في تتبع المعاني الجزئية تعسفاً واحتيالاً .

وقبل أن نأخذ في بيان هذه الخطوط نبـدأ من العيب على البحتري في تقليده استاذه ، فان لحبيب مجداً لا يطال وقد جعله البحتري استاذه باعترافه واقراره ، يترسم خطاه ويقتدي به ويتمدح ويقول إنه لم يأكل الخبز إلا به (١) .

(١) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٩

وما كان في مقدور البحتري غير تقليده فقد فتن البحتري بشخصية الرجل وراعته بديهته وارتجاله وحفظه وذكاؤه عند اول لحظة رآه ، فليست المسألة إذن مسألة وفاء لابي تمام وإنما هو خضوع بالقهر له ، وفي يد ابي تمام منجم من المعاني يكفي كل صائغ أن يأخذ منه ليفتن الناس متى خلص ذهبه من التراب .

وكان البحتري (١) بين الطبع والرأي يميل إلى القديم والمحدث ، وعليه ان يصنع ما يلائم الحضارة التي رآها في العراق بل عليه ان يقلد شذوذها ما دامت قد قبلت هذا الشذوذ وقد رأى إقبال الناس على شعر ابي تمام يدرسونه ويحفظونه ويشيدون به برغم ماتحزب ضده المحافظون فلم يكن بدّ من ان يقسر طبعه على الخوض فيما خاض فيه ، وقد فعل ، فأوفد على شعره غزراً غزيراً من البديع ولكنه نقاه وصفاه ، وعدداً ضخماً من غريب الألفاظ ، ولكنه جعله في قصائده تفاريق ، وخالف قياس الاشتقاق ولكن حين يأمن عدم اللبس ، وخاض اغراضاً لم يعرفها القدماء ولكن على طريقتهم ، ثم رق بشعره الى درجة التنوق ، ولكنه لزم عمود الشعر فبانت صناعته وكأنها طبع لم يحفل بالصناعة .

وفي وسط هذه السكة قلد استاذه في الأغراض التي أنشأها او وسّع القول فيها ، ولكنك ما تكاد تراه يتبع

(١) انظر قول الثعالبي في طبع البحتري : ثمار القلوب ص ١٧٩

اثره في حذر حتى يلتوي في بعض الامر على نفسه وينفرد دونه ليرجع الى شخصيته ويشبع نهمة طبعه ، وهو شيء يكاد يكون مضحكاً . وسنرى امثلته بعد قليل من السطور .

ومن حيث اخلص ابو تمام لفنه الشعري فقال فيه اروع جملة لتعظيمه (١) فقد اخلص البحتري كذلك لفنه الشعري ، وفضله على النثر ، كما رأيت من قبل في استنباط ابن رشيق وقال فيه جملة اخرى لاجلاله . ومن ذلك قوله يساوي بين الشعر والمال :

ليواصلنك ركب شعر سائر ... يرويه فيك لحسنه الاعداء
حتى يتم لك الثنـــاء مخلداً ... ابداً كما تمت لك النعماء
فتظل تحسدك الملوك الصيد بي ... وتظل تحسدني بك الشعراء

وقوله مفضلاً الشعر على المال :

لأشكرنك ان الشكر نائله ... أبقى على حاله من نائل النشب
بكل شاهدة للقوم غائبـــة ... عنهم جميعا ولم تشهد ولم تغب
مرصوفة باللآلي من نوادرها ... مسبوكة اللفظ والمعنى من الذهب

ويستكثر الشعر على اهل النوال فيسترده قائلاً :

فردوا القوافي السائرات بمدحكم ... وما اكسبتكم من ثناء ومن حمد

ويقول في الشعر وهو علة النوال :

هذي نوافلك التي خولتها ... رجعت غرائبها اليك قصائدا
تعطيك شهرتها النجوم طوالعا ... وتريك انفسها الجبال خوالدا
متعسفات ما تزال رواتهـا ... تأبى عليها ان تسير قواصدا

(١) عبقرية ابي تمام ص ٣٠

وهي القوافي ما تقر ثوابتا لممدح حتى تسير شواردا
علل لأنواء الذخــائر كلما جليت على ملك أباح التالدا
والبحر لولا ان تسيّر سفنه بالريح ما برحت عليه رواكدا

وبينا ترى البحتري هكذا يمضي مضيّ ابي تمام اذا بك تراه قد غضب وعاد عليه الطبع بالغلبة فخالف الطريقة ونقض غزل التقليد ، فهجا الشعر وأزرى بالشعراء وذلك في مثل قوله :

وصدّت ربيعة عن شاعر يسمي ربيعَــة أخواله
فلا بورك الشعر من صنعة ومن قيل فيه ومن قاله

وهذا الوصف للشعر وعمله في النفوس وإدلال الشعراء به لم يكن من عمل المولدين فحسب ، ولكن الاوائل سبقوهم الى القول فيه . قال فيه كعب بن زهير وعدي بن الرقاع وابن ميادة والفرزدق ثم قال فيه بشار وابو حية النميري وابو تمام ، ولكن المولدين أسهبوا في الوصف واطالوا ، وانفرد ابو تمام عن الشعراء بأن كان اكثرهم في هذا الباب قولاً واوسعهم بحراً وقد قلده البحتري [١] .

وكان التفت ابو تمام في شعره التفاتات بارعة الى فتنة التنجيم في زمانه وحاربها في قصائده [٢] فتبعه البحتري يسفه الفتنة ويزري بالمنجمين ، ومنه قوله يهجو رجلاً يشتغل بالنجوم والزيج اسمه ابن ابي قماش :

من أين اغفلت ذا وأنت على التـ قويم والزيج جد معتكف

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٩١
(٢) عبقرية ابي تمام ص ٩٩

رذلت في هذه الصناعة أم اكديت أم رمتها مع الحرف
يا ضيعة العلم كيف يرزقه ذو الحرق منكم والعجب والصلف

ويقول متهكماً :

كيف تقضي لي الليالي قضاء يشبه الحق والليالي خصومي
وعجيب ان الغيوث يرجيـ ـهن من لا يرى مكان الغيوم
منع الدهر ان يسوّيَ في القسـ ـمة بين المحظوظ والمحروم
أبحتمٍ مقــدر أم بحق واجب ما ادعاه اهل النجوم
ومرام المعروف صعب اذا لم تلتمسه لدى شريف الأروم

ويقول متهكماً مشيراً الى مسألة من مسائل التنجيم في زمانه :

قل لنا والنجومُ منك ببــال لِمْ أحلتْ بطالعيك السعودُ
وقفت للرجوع في الثالث الزهـ ـرة فابتزّ سترَهُ المولود

وبينما تراه هكذا مغتبراً وراء فرس أبي تمام اذا بك تراه قد حرن فمال الى ما يقولونه في تفسير الاحلام ، فيفسر الحريق الذي أصاب دار المعتز تفسير المؤمنين بها ، وذلك حيث يقول :

عند الخليفة مما فاته عوض بالمال مال وبالبنيان بنيــان
تفاءل الناس واشتدت ظنونهم والفأل فيه لبعض الأمر تبيان
وأيقنوا ان تنوير الحريق هو الدنيــا يملكها والنــار سلطان

ثم آمن ابو تمام بالمجد المكسوب اكثر من ايمانه بالمجد الموروث وجعل يدعو اليه [1] فتبعه البحتري ، ولكنه اتبعه

(١) عبقرية ابي تمام ص ١٠٠

على قلق واضطراب فقال وهو يكاد يساوي بين المجدين :

لها الحسب الزاكي الذي تعرفونه — وفيها طريفات العلا وتليدها
فلا تسألوها عن قديم تراثها — فعسجدها مما أفاد حديدها

ثم وصف الربيع والغيث والحرب والمصلوب [1] والحريق كما فعل ابو تمام . ثم انه تبعه فاختار من شعر القدامى وبعض المحدثين ما سماه بالحماسة كما سمى ابو تمام بعض ما اختاره ، ولكنه رجع ايضاً الى طبعه الصافي فجعل كتابه فصولاً صغرى للأغراض الصغرى حتى لا يختلط غرض بغرض ، فعدُدها يحدّ ويكثر كلما جاء على الشعر جديد . اما ابو تمام فجعله ابواباً كبرى مفتوحة تقبل في جوفها كل وافد جديد .

هذا ، وقد سبق لنا ان تحدثنا عن تقليده له في الاستطراد وتقليده لابن الرومي في الهجاء . اما خروجه عن القياس ، وإكثاره من الغريب فسنعود الى الكلام عنه عند الكلام على لفظه المفرد في الفصل الثاني .

الاجماع عليه

واجمع الناس في عصره وبعد عصره عليه ، الأمراء والعلماء والعمال واهل الطبقة الوسطى والسوقة . ويقول ياقوت إن بعض اهل عصره قدموه على ابي تمام بادىء الرأي

---

(١) الديوان ص ٧٤٧

وختموا الشعراء به[1] .

وانما اجمعوا عليه لأن اكثر كلامه قد قرب منهم وفهموه ، وقد عني البحتري بمعاني المجتمع فأخذ منها ، ولم ينس ان يستعمل ما اصبح منها إرثاً شائعاً للناس ، واتخذ من القرآن والحديث ومسائل الفقه الميسورة الفهم ومن الحكم والأمثال والتاريخ المعروف بالشهرة جمهوراً زاخراً من معانيه . وقد فهم القوم ما أراد وعرفوا غرضه بها ، وقد احتال هو ايضاً على الصعب فليّن كثيراً منه وقربه للناس سهلاً شهياً .

فهموا ما أراد البحتري وعرفوا غرضه ولكنهم لم ينظروا في كلامه النظرة الفنية التي نظر اليها المتأخرون . وذلك لان علم البلاغة لم يكن قد وضع بعد ولم تكن مسائله قد رسخت ، ولم يكن النقد قد صار علماً كما هو اليوم . وكان من حسن حظ البحتري ان التقى عليه اجماع الدارسين واجماع المعجبين بعد نمو علم البلاغة وعلم النقد .

وقد ظلت الاجيال تردد كثيراً من مشهور البحتري ، فلما بلغ عصرنا كان البحتري بهذا المشهور وحده دون سواه سهلا قريباً وكأنها بديهة ادبية ، وظن الناس او ما يزال كثير منهم يظن ان شعره غير محتاج للدراسة ، وهذه هي الغلطة في معرفة البحتري ولم يجنها احد سواه .

فمن حيث شهدت كل الطبقات في عصره بسهولته كان

(١) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٨

شعره مع الأدباء والعلماء يجري في غير هذه الطبقة ، بل ان له شعراً على جانب من الصعوبة يحتاج الى الصبر الطويل ليفهم ككتابه بالشعر يرد على ابن طاهر [١] ، ولكنه مهما صعب يبدو سهلا واضحاً اذا قرن بشعر ابي تمام . ولعل بعض الناقدين تجاوز عن هذا الجانب الصعب فيه فعده من حسناته لانه يلذ للدارسين .

وَفرَط من نقاد الازمنة المختلفة اعجاب بالبحتري، فأبو العباس المبرد الذي وقف دهراً طويلا يعادي شعر ابي تمام (٢) حتى حثه عليه ابن المعتز كان يستجيد شعر البحتري ويكثر من إنشاده ويقول : ما رأيت اشعر من هذا الرجل ! ولم يمنع المبرد ان يدون شعره في كتبه وأماليه الا انه كان يعيش في زمانه ويلقاه وينشده من شعره ، وكتُب المبرد واماليه كانت تختص القديم الغائب لتزوّد ثقافة العصر بما ليس فيه ، وكان المبرد يعتذر عن ذلك قائلا : لولا انه ينشدني الذي انشد كم لملأت كتبي من أمالي شعره ! (٣)

وكان ابو العباس ثعلب ينشد شعره ايضاً ، وقد انشد الصوليّ وصفه لقلم الحسن بن سهل :

واذا دجت اقلامه ثم انتحت برقت مصابيح الدجا في كتبه

فاستعاده الصوليّ حتى فهمه ثم جعل يقول : لو سمع

---

(١) الديوان ص ٢٠٥

(٢) عبدالله بن المعتز

(٣) الموازنة ص ٩

الاوائل هذا الشعر ما فضلوا عليه شعراً (١)

وصاحب الموازنة – وكتابه في تفضيله – يقول : ان الاجماع قد وقع على استحسان شعره واستجادته ، ويدعي ان شعره قد رواه واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختـــلاف مذاهبهم ، ويدّعي ايضاً ان اصحاب ابي تمام الذين فضلوا طريقته لم يدفعوا البحتري عما امتاز به عن صاحبهم(٢) من حلاوة اللفظ وجودة الوصف وحسن الديباجة و كثرة الماء ، ثم من قرب مأخذه وسلامة طريقته عن ابي تمام .

والقاضي الجرجاني صاحب الوساطة(٣) يقـــول : ومتى اردت ان تعرف مـــا بين المصنوع والمطبوع ، وفصل ما بين السمح المنقاد والعصي المستكره فاعمد الى شعر البحتري .. ثم عرض القاضي امثلة مختلفة له من النسيب والملح واطنب في الثناء عليها .

وصاحب العمدة يقول (٤) واما البحتري فكان املح صنعة واحسن مذهباً في الكلام ، يسلك منه دماثه وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليـــه كلفة ولا مشقة .

وقال الشريف الرضي : اما ابو تمام فخطيب منبر ، واما

---

(١) العمدة ج٢ ص ٢٠٦

(٢) الموازنة ص ١٨١

(٣) الوساطة ص ١٩

(٤) العمدة ج ١ ص ٨٥

البحتري فواصف جؤذر ، واما المتنبي فقائد عسكر . وقال ابو العلاء قولته المشهورة : ابو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري . وسنعود الى الكلام عما يريده ابو العلاء بكلمته هذه في آخر الكتاب .

وادباء عصرنا ونقاده يتبعون آثار القدماء فيتمدحون البحتري . وحيثما وجدت فيه مؤلفاً او بحثاً وجدت الثناء ، وفي حديث الشعر والنثر والبحتري وطيف الوليد [١] وفي مذكرات طلاب المدارس ما يغنينا عن الافاضة في آراء اهل عصرنا . غير اننا لن نأخذ انفسنا بالكلام المجمل ولا الثناء العابر ، وانما نعرض صناعة البحتري على محك الفن وميزان الدقة لنتبين حقيقة قدره وسر جماله الذي جمع عليه القلوب .

(١) هذه الكتب مشار اليها في ثبت المراجع .

الباب الثاني

مسالك طريقته

●

اللفظ المفرد ـ اللفظ مع اللفظ ـ التجانس
تنضيد المعاني ـ معراج الرقي ـ بناء القصيدة

اللفظ المفرد

قال صاحب الخصائص : فاذا رأيت العرب قد اصلحوا ألفاظهم وحسنوها وحمَوْا حواشيها وهذبوها وصقلوا عذوبتها وأرهفوها فلا تُرَيَنَّ ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف لها .

ولم يعجب الرافعي هذا القول ، فرأى ان ابن جني لم يصل الى معرفة الحقائق ، حيث جعل رقي اللفظ راجعاً الى خدمة المعنى . ويرى الرافعي ان من علامات تمدن العرب اللغوي بناء لغتهم على اسباب لسانيـــة من عذوبة المنطق ومراعاة النسب اللفظي بين الحروف ، بحيث لا تجد في كلمة عربية حرفين لا يأتلفان كالغين مع الحاء او القاف

مع الكاف ... ويرى الرافعي ان في العرب فطرة تميل بهم عما يصيب كلامهم بالجفاء الى ما يلين حواشيه ويجعله رشيقاً رقيقاً . وهذه العناية منهم بتأليف الكلمات من حروف متناسبة كانت السبب الطبيعي لعنايتهم بتأليف الجمل واحكام الكلام ثم توخيهم روعة الاسلوب وفخامة التركيب . ويرى الرافعي ان ذلك امر خُص به العرب دون سائر الامم ، ويقول : وقد غفل بعض العلماء عن هذا السبب الطبيعي" ، فذهب الى ان العرب انما تعنى بالالفاظ لانها تغفل المعاني[1] ..

وهذا الرأي يبدو حصيفاً دقيقاً ، بل يعتبر قولاً حاسماً في موضوع اللفظ العربي . فالعناية به انما هي دلالة على تمدن العرب اللغوي . والشاعر او الاديب الذي يعنى به انما يعمل على قانون هذا التمدن والمحافظة عليه . والبحتري بعمليته في اختيار اللفظ والاهتمام به في بناء الجملة قد عمل من جانبه حفاظاً على الميراث ، بل اضاف الى عملية التنقية والتصفية مفخرة جديدة . وقد استطاع ذلك لطبعه الصافي ، اذ في طبع العربي مقدرة على معرفة لفظه والنطق به ، واذا اخطأ فقد يكون ذلك في المعنى ، اما في اللفظ فلا . وابن هشام في « المغني » يؤيد هذه النظرية بقوله : « وانما العرب محميون من الخطأ في الألفاظ دون المعاني » . وتحت هذه النظرية كان نقد القدماء اكثر ما ينصب على الألفاظ ، وكان جل نقد ابي العلاء في عبث الوليد منصباً على الالفاظ من حيث

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢

التوسع في الدلالة على المعاني الكثيرة والاشتقاق ، ومخالفة القياس[1] .

●

والحق انه لا يوجد كيان مستقل للفظ المفرد ولا سيما في العبارة الادبية ، وانما تظهر قيمته في التركيب ، ولكنه على كل حال يجب ان يستوفي شروطاً وضع لها البلاغيون أصولاً عاونت على وضعها الحضارة الراقية التي كانت تنتظم العراق . وكان البحتري بطبعه وتحضره ذا احساس قوي ، وإدراك نابغ لما يجب ان يكون في اللفظ المفرد .

كان يختار ان يكون اللفظ عربياً خالصاً ولا سيما اذا كان من ألفاظ الاشتقاق . أما اذا كان علماً أعجمياً لشخص او مكان فلا يمنعه ذلك من استعماله لانه لن يغير من جوهر اللغة . وابو تمام خالف هـــذا الرأي فاشتق من الاعجمية أفعالاً(٢) ، أما البحتري فلم يتجاوز الحد ولم يخلط النغم .

واختار البحتري لفظه العربي الخالص قريباً مألوفاً ، وكان ذلك انتصاحاً بفساد طريقة ابي تمام ، وتأثراً بفعل الحضارة . فانها حيث تدعو الى تعقيد المعاني واخفائها تعمل على تقريب اللفظ وتسهيله(٣) وقد فتن البحتري بالحضارة وودّ منذ اول الامر أن يغير كنيته ، ثم غرق في شبهتها ونفاقها . وقد عمـل

(١) عبث الوليد
(٢) عبقرية ابي تمام ص ٥٧ ـ هزيات ابي تمام
(٣) عبقرية أبي تمام ص ٦٣

ايضاً على تقريب الالفاظ لانه كان ينشد الخلفاء والوزراء والموالي ، وكثير منهم لا يعرف الحوشي الغريب ، واذا عرفه فهو لا يلتئم مع البيئة المترفة الميسورة التي غرق فيها هؤلاء .

ذلك من عمل البحتري . وهناك عمل من الالفاظ العربية نفسها ، ذلك انها لا تقبل لفظاً اعجمياً إلا اذا صقل بصقالها ليلتئم معها وكأنها حبات عقدٍ من جوهر خاص فلا تقبل معها حباتٍ من جوهر آخر إلا اذا صقل معها . وهذه ناحية ذاتية من فنية العربية لم يفطن لها الا ذو فطنة ، ونحن نعلم موقف اللغة العربية العنيد في رفض الكلمات الاعجمية والمركبة إلا اذا صقلت لتسير معها في صقالها ، وقد بقيت المعضلة حتى اليوم .

على أنه من الصفاء ايضاً ألا تستعمل لغة الأدب كل لفظ لغوي ، فقد يفسد بوجوده صفاء اللغة ويميل باعتدال الميزان وكان البحتري يحسّ بحاجة اللغة لهذا الصفاء في الالفاظ . وكأنه إلهام . وهو يقول في ذلك :

إذا نحن كافأنا كمُ عن صنيعة ... أنفنا فلا التقصير منا ولا الكفرُ
بمنقوشة نقش الدنانير ينتقى ... لها اللفظ مختاراً كما ينتقى التبر
تبيت امام الريح منها طليعة ... وغدوتها شهر وروحتها شهر
تقضي ديون المنعمين ويقتنى ... لهم من بواقي ما أعاضتهمُ فخر

ونظرة عجلى إلى الفاظ القوافي الصعبة في ديوان البحتري وهي التي من روي الضاد أو الطاء أو الواو تخبرك أنه لم

يختر للقافية الا ما هو قريب معلوم ، ولذلك كانت قصائده تلك بينة القِصر .

•

وليس معنى هذا ان البحتري لم يعالج الالفاظ الغريبة ، بل أنه عالجها ، وله منها عدد لا يحصى كثرة ، ولكنهم ليدرأوا عنه عيبه ، قالوا إنه لجأ إليه مضطراً لانه لم يجد لمواضعه سواه ، ولم يلجأ إليه إلا في القصائد التي وجهها للعلماء والادباء ، وكذلك بقي على ألفاظه المألوفة القريبة في جل شعره . ونحن إنما نرى - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - أن البحتري ذهب الى هذا الغريب مختاراً لا مضطراً ليقلد فيه أبا تمام لئلا يعاب بقلة محفوظه . ولعل الادعاء خلقٌ من أخلاق الحضارة .

وإليك أمثلة من الفاظه الغريبة لتدرك أنه تابع أحياناً أبا تمام ، وهذه الامثلة في قصيدة واحدة له عينية (١) . وهذه الالفاظ هي : جؤشوش بمعنى قطعة من الليل ، جلنفع بمعنى احمق ، وضريك وهي فقير معنى ووزنا ، وهجهجوا بمعنى صاحوا . وانك لتستطيع الحصول على مئات كثيرة من مثل هذه اذا رأيت الديوان .

وابو العلاء في كتابه عبث الوليد ينحي باللائمة على البحتري في الجرأة على الفاظ اللغة حيث رخص لنفسه كما رخص لها أبو تمام فخرج عن مألوف اللغة فمدّ المقصور : فبدل ان

(١) الديوان ص ٨٨

يقول الظمأ قال الظماء [١] وبدل ان يقول سبأ قال سباء [٢]
ويقول أبو العلاء : ماعلمت احـــداً من الشعراء مد سبأ ،
وذلك جائز على القياس وإنما استعمله الفصحاء مهموزاً بغير مد .

والبحتري ايضاً يخالف القيـــاس فيقول مكان اسوادّ
اسوأدّ [٣] ويقول في مكان يبكي يَبيكَ [٤] وينقل الهمزة فيقول
في شأو شاه [٥] ورأى راء [٦] .

والبحتري يتوسع في استعمال الالفاظ فلا يحدد المعنى الذي
يريده إذ يصح باللفظ الاتجاه إلى معـانٍ كثيرة [٧] – وهو
مبحث غير مباحث التورية – وكتـاب عبث الوليد لأبي
العلاء يحوي كل الامثلة التي اوردها البحتري من هذا النوع .
ولعل أبا العلاء لم ينس عمل الحضارة في عملية التوسع اذ هي
تنقل الالفاظ من معنى إلى غيره ، والبحتري دائماً كان يريد
المعنى الحضري لا محالة لأنه يُفهم القوم الذين ينشد فيهم ،
واذن فقد كانت دراسة أبي العلاء إعناتاً للبحتري . وحتى لو كان
نقد أبي العلاء صحيحاً لكانت عمليـــة التوسع من البحتري
وعملية النقد من أبي العلاء مساهمة منهما في ازدهار الكلمات

---

(١) عبث الديوان ص ٨٨
(٢) عبث الوليد ص ٥٩
(٣) عبث الوليد ص ٦٨
(٤) الديوان ص ٤٠٧
(٥) الديوان ص ٥٢٨
(٦) الديوان ص ٥٨٥
(٧) عبث الوليد ص ١٠١

التي لم تكن العربية القديمة تعرف أمكنة واسعة لاستعمالها .

•

وابتدأت عمليـة التنوّق في شعر البحتري من تنوقه في اللفظ وترفقه فيه ولو أخرجه هذا الترفق عن القياس . وقد رأيت من قبل عمله في لفظ شأو وعمله في لفظ يبكي فاذا رأيت هذين اللفظين في بيتيهما أحسست بالتنوق ، وها هماذان مع غيرهما ، يقول :

أيهـا الطالب الطويل عناؤه   ترتجي شأو من يفوتك شأوه

ويقول :

بمطاله إني أعـــدُّ مطالـَه عن غير رائك

ويقول :

لو يملكون الضوء بخـ   ـلا لم يكن للخلق ضوْ

ذهب الكرام بأسرهم   وبقي لنـا ليثٌ ولوْ

ويقول :

يتكفّـا النحل في حافاتها   بالقماري تغـنى أوتَبك

وطالما خفف البحتري تضعيف الالفـاظ فقال في سيّما يِسيما وفي سيء سيْء وهو ضرب من التنوّق .

اللفظ مع اللفظ

وهذا ما يسمونه بالازدواج ، والغرض منـه النسبة التي تكون بين الكلمتين ، أصحيحة هي سائرة على نمط ما يعرف العرب ام غـير صحيحة لا تسير على النهج ؟ فاذا ارتضاها الذوق العربي بالقياس كانت صحة وسلامـة ، واذا رفضها

ومجّها كانت سوءاً وقبحاً ، وعلى هذا الميزان القياسي سقطت ازدواجات كثيرة لأبي تمام . وعلى نفس هذا الميزان تسقط ازدواجات الشعر الرمزي الحديث .

ولتتضح المسألة في نفسك نبسطها لك بعض البسط فنقول : انظر الى هذه الكلمات : مفصل – طول – الحد – المجد – الزمان – مسن – الذراع – قمة .

فهذه ثماني كلمات . خذ منها كلمتين كلمتين – كما تفعل في حل الرموز – لتكون من كل اثنتين نسبة قياسية صحيحة . انك لا شك ستقول : مفصل الذراع . ومسن الحد ، وقمة المجد ، وطول الزمان . وانت لم تختر ذلك الازدواج بين كل لفظين الا لقوة النسب بينهما ، والنسبة التي فعلتها انت صحيحة لان القياس يرضاها ، فلو انك جئت بهذه النسب وامثالها في الكتابة لكنت متبعاً قانون الكتابة ، ولو جئت بمثلها في الشعر لكنت متبعاً عمود الشعر . ولكني سأعرض عليك لتستغرب او لتضحك كيف كان يزاوج ابو تمام .

انه قال : مسن المجد ، ومفصل الزمان ، ولوعة الندى ، وقلق المكرمات ، ونحر الغزل ، ورقبة المعذرة ، وكبد المعروف [1] . ولكن لا تظن ان مزاوجات ابي تمام قد صار كلها لهذا فمعظم شعره صحيح الازدواج قوي النسب ، ولكنه اتهم بفساد شعره من القلة الفاسدة في الازدواج ، من حيث لم

---

(١) عبقرية ابي تمام ص ٩٣

يتهم البحتري في كثير ولا قليل ، بـل بقيت نسبه كلها صحيحة في المزاوجة بين الالفاظ .

ومن بعض المزاوجات تنبع الاستعارة فتكون صحيحة او سقيمة . وسأضرب لك امثالاً في ارجوزة واحدة للبحتري ترى فيهـا ازدواجات كثيرة قوية النسب تمتلىء بالصحة والعافية ، وهي مقياس لازدواجات شعره التي تسير كلها في نفس الطريق . قال يصف سحابة ماطرة :

ذات ارتجـاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجـد لها نسيم كنسيم الـورد
ورنة مثـل زئـير الاسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثـل انتثار العقد
فراحت الارض بعيش رغد من وشي انوار الربا في برد
كأنما غدرانهـا في الوهـد يلعبن من حبابها بالنـرد

وفي هذه القطعة وحدها عدد كبير من النسب القوية بين كل كلمتين ففيها الحنـين للرعد ، والجر للذيل ، والصدق للوعـد ، والسفح للدمع ، والنسيم للورد والرنة ، للرعد ، والزئير للاسد ، واللمعان للبرق ، وصنعة السيف للهند ، والانتثار لماء المطر والعقد ... وكلها نسب قوية صحيحة لان كل لفظة متبوعة بما يشاكلها ومقرونة بما يشبهها ويقرب منها . وهذا الازدواج يسميه الجاحظ "تلاحم الاجزاء"[1] .

وإليك فاسمع بعض هجاء البحتري لترى كيف يزاوج

(١) العمدة ج ١ ص ١٧١

فيه بين الكلمات :

جزل الرقاعة فدم يدّعي أدباً ... وليس يفرق بين التين والطين

جهم عبوس على صدر الخوان له ... تفريق لحظ كأطراف السكاكين

وفي البيتين الجزالة للرقاعة ، والادعاء والجهل للمهجوّ ، والصدر للخوان ، وتفريق اللحظ للنهم ، والاطراف للسكاكين .

وبالمزاوجة الصحيحة يعذب لك النطق بالكلام ويلذ سماعه ويخف متحمله ويقرب فهمه لانه يطابق البدائه اللغوية ويسير معها . ولو تنافرت الكلمات ولم تتصل الا قهراً كما فعل ابو تمام لعسر حفظ الكلام وثقل على لسان الناطق به ونفر منه السامع ولم يستقر في نفسه منه شيء .

وكانوا يقولون ان هذه كانت صناعة الكتاب فتقع المزاوجة في ألفاظهم اكثر مما تقع في ألفاظ الشعراء فنقلها البحتري الى الشعر وتوسع فيها (١)

●

ولا تحسب ان هـذا الازدواج لم يكن يعلم بشأنه البحتري ، بل انه كان يعلم به ويعمل طبقاً له ، وهو الذي عبر عنه بالنظام البلاغي في مدحه لابن الزيات بقوله – وقد اشرنا اليه من قبل – :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد .

وهـذا الازدواج يشعر به البحتري أكثر من الشعور اللغوي فيعبر عنه تعبيراً أدبياً بارعاً في قوله :

---

(١) العمدة ج١ ص ١٧٢

هي الراح تمت في صفاء ورقة ‏ فلم يبق للمصبوح الا مزاجها
فان تلحق النعمى بنعمى فانه ‏ يزين اللآلي في النظام ازدواجها

وليس بغريب على من يحس جمال الازدواج في نظام اللآلي هذا الاحساس ان ينقله إلى أدبه وشعره قولا وعملا كما فعل البحتري . بل إن الاحساس بجمال الازدواج شيء مركوز في طبع البحتري ينقله الى صناعته . وسنتكلم عن هذا الجمال المركوز للازدواج في طبعه عند الكلام على الطيف والشيب .

التجانس

وألفاظ الجملة كلها حين تتصل بنسب قوية لتؤدي غرضاً أكبر من المزاوجة ، يجب ان تؤديه في وضوح وقوة ، ولن يكون ذلك إلا بالمشاكلة بين التراكيب والمعاني . وقد نظرت علوم البلاغة في كثير من اتجاهات هذا التجانس ، ولكننا ندع ذلك التوسّع في البحث ونذهب الى ما نحن بسبيله من تجانس البحتري .

إن الألفاظ حينما تجتمع وتتركب لتؤدي معنى من معاني هذا الشاعر تتجانس هي وذلك المعنى أتم التجانس ، فتراكيب كلماته مقدودة لتؤدي المعنى أتم الاداء وأحسنه ، بحيث لو خيرت المعاني أن تلبس أثواباً غير أثوابه لما اختارت غيرها لئلا يغيب المعنى أو يشوه وجه الجمال .

وليس معنى هذا أن الاجزاء مقدودة على حسب المعاني

كما تُقَدّ الثياب على مقادير الاجسام – كما يقولون –، أو أنها لا تشاب بقصور عن الدلالة على معانيها ، أو انها ترق في موضع الرقة وتعنف في موضع العنف [1] . لا . ليس الأمر كذلك ، وانما قد يُلبس البحتري المعنى الصغير ثوباً واسعاً ويمنحه ألفاظاً كثيرة ويبدو المعنى مع هـــذا صافياً جميلا واللفظ عذباً حلوا . وقد يلبس المعنى الضخم أثواباً ضيقة ويحرمه كثرة الألفاظ من حيث لا تختنق ضخامة المعنى ولا يقل بهاء اللفظ وروعته . وإليك الأمثلة لتدرك صدق نظرتنا هذه التي نحاول أن نفسر بهـا بعض ما غمض عـــلى النقاد فأجملوا فيه الكلام إجمالا .

يقول البحتري متغزلا :

قد كنتُ حراً وأنت عبد   فصرتُ عبداً وأنت حر

أفتظن أن الكلمات هنا مقدودة على قدر المعاني ؟ لا . إنها أكثر وفيها بعض القصور . فالشطر الثاني مفهوم من الاول ، وقد دلت عليه كلمة « كنتُ » . وكلمة أنت في البيت الثاني ليست في موضعها ولكن كلمة صرت دلت عـلى الصيرورة فيها ، والصيرورة كلها مفهومة من قوله « كنت » ولكنك مع هذا لا تستغني عن ذيل الثوب الذي صنعه البحتري من الشطر الثاني ليتم تمام المعنى . وأما الألفاظ فقد حمّـل بعضها بعضاً ان تؤدي مجتمعة ذلك المعنى المراد :

ويقول البحتري :

---

(١) الادب التوجيهي ط ١ ص ١٩٦

هذا ابن يوسف في يدي أعدائه   يجزى عـلى الايام بالأيام

فهل تظن ان هـذا الكلام لا يشاب بقصور عن الدلالة في ذاته ؟ لا . وكأنه مشوب بالقصور في ذاته ، فما المراد من الايام الأولى والأيام الثانيـة ؟ ولكن أنظرنا ، فإنـه كامل المعنى مسبوك اللفظ ، وليس بـه قصور ، فالذين سمعوه من فم البحتري والذين قرأوا تفصيلات التاريخ يعرفون المعنى ولا يريدون زيادة في الالفاظ . وابن يوسف هـذا هو محمد بن يوسف الثغري ، حارب للخلافة فانتصر لها في المواقع ، ثم غضب عليه رجال الخلافة فسجنوه . وقد عرفت إذن ما يراد بالأيام والايام .

ومثل هذا قول البحتري يمدح قائداً مسلماً :

بعض بغضائكم فليس مفيقا   أو يرد الأديان بالسيف دينا

ومثله قوله يصف جارية :

كملت أربع لهـا بعد عشر   ومدى البدر أربع بعد عشر

ومثله قوله وهو أبرع فناً :

قلَّ الكرام فصار يكثر فذّهم   ولقد يقـلّ الشيء حتى يكثرا

واذا نظرت في هذه الأبيات لم تغب عنك معانيها ، ولم تحتج لزيادة في ألفاظها فالأديان والدين معروفة والعدد في البيت الثاني للسنين ثم لليالي ، والقلة والكثرة بالنسبة لشيء واحد هذه من جانب وهذه من جانب . وكلها إشارات لطيفة يتضح بها المعنى وليست كإشارات ابي تمام [1] . ولعل

---

(١) عبقرية أبي تمام ص ٥٩

المعنى الاخير من ابتكارات البحتري .

ويقول أبو عبادة :

بوجوهٍ تُعشي السيوف ضياء وسيوف تُعشي الوجوه وقودا

ومعنى الشطر الاول رقيق ومعنى الثاني عنيف ، ولكن الالفاظ هي الالفاظ ، فهل رق البحتري عند الرقة ، وعنف عند العنف ؟ لا . إنه بنفس الالفاظ رقّ وبها نفسها عنف مع تغيير أوضاع الكلمات تغييراً يسيراً ، والمجانسة بين الالفاظ والمعاني باقية على قوتها بين المعنيين والاسلوبين .

●

وكانوا يقولون إن ابا عبادة مشهور بأنه صاحب اللفظ العذب والعبارة الرصينة المتينة ، وان ابا تمام حبيب بن اوس صاحب المعاني المبتكرة المخترعة ، وليس معنى هذا ان البحتري لم يكن يجيد المعنى مطلقاً او ان ابا تمام لم يكن يجيد اللفظ ، بل معناه ان الصفة الغالبة على البحتري هي تجويد اللفظ ، والصفة الغالبة على ابي تمام هي ابتكار المعاني .[٢]

وفي هذا القول من الخطأ ما فيه ، فان البحتري يختارهما معاً اذ لا يمكن الفصل بينهما في الانشاء والزمن ، ولا سيما عند الشاعر المطبوع ، ولكنا مضطرون هنا ان نتصور ان هناك انفصالاً واقعاً بين العبارات ومعانيها إنشاءً وزمناً لنقرب للأفهام قدرة البحتري على صياغة عباراته لمعانيه .

ولذلك نتجاوز قائلين : إن هناك محاولتين من أبي تمام

(٢) الأدب التوجيهي ط ١ ص ١٩٦

في إظهار المعاني ؛ هما الغوص عليها ، وإلباسها على عجل ما اتفق لها من الاثواب كما يفعل بجثث الغرقى الأحياء يغطون بما اتفق من الأغطية لتدفئهم ، وهي كأنها عملية واحدة لان المشقة التي بذلت في الانقاذ غطت على قيمة الغطاء . وأما البحتري فهناك له ثلاث محاولات : هي انه ينقذ المعنى من القرار او من الضحضاح ، ثم يظل يختار له الغطاء الذي يدفئه كل الدفء ، ثم لا يرضى ان يكون الغطاء الا جديداً جميلاً ، وحينئذ تبدو صنعة ابي تمام باهرة من ناحية المعنى والمشقة ، وتبدو صنعة البحتري باهرة من ناحية العبارة والشكل . والحقيقة انهما كلاهما قد غاصا على المعنى وتعبا في إنقاذه ، وانما تختلف طريقة الذكي النشيط عن طريقة البطيء المتأنق ، ومن وراء ذلك ايضاً قال القدماء ان ابا تمام أفسد الاسلوب وهدم التقاليد ، وان البحتري سار على الدرب ولزم عمود الشعر .

ويبدو لي ان صاحب الموازنة قد فهم ذلك فعدّد للناس سرقات البحتري للمعاني من الشعراء عامة ومن ابي تمام خاصة ، ليدل على غزارة معاني البحتري ، ولكنه على طريقته مال الى ان يجعل الدراسة تفضيلاً للبحتري فأثبت له من المعاني ما لم يجيء به صاحبه وهو دليل في جانبنا .

وهناك قول آخر قاله اكثر القدماء . قالوا ان البحتري عاش عيلة على معاني ابي تمام ، وفي هذا دليل آخر على ان البحتري لم يكن هيناً عند المعاني . اوليست هي معاني

ابي تمام ؟

وبعد ، فاننا لم نرد من كل ما قلناه ان ننزه البحتري عن النقص ، فان النقص – كما يقول ابن المعتز – من طبائع المخلوقين ، ولكننا أردنا ان نعطيه حقه المبْهم او حقه المسلوب .

●

وهناك شيء آخر في اسلوب البحتري ، ذلك هو التأنق او الرشاقة – كما قالو – ، ولعل صفة التأنق أو الرشاقة صفة جديدة في كلام البحتري ، فما هي ؟

إنه لم يوصف كلام أحد بهذا الوصف – من المشهورين القدماء – سوى اثنين ، واحد في الكتاب هو ابن المقفع ، وواحد في الشعراء هو البحتري ، والرشاقة في اللغة حسْن القدّ ولطفه ، ورشاقة القوس خفتها وسرعة سهمها ، ورشاقة الظبية مدّ عنقها [1] . والتأنق صنو للرشاقة فالشيء الأنيق هو الحسَن المعجب .

والتأنق في العمل يكون باتقانه وإحكام صنعته (٢) . ومن هاتين المادتين نستطيع ان نفسر ما اراده القدماء بتأنق البحتري ورشاقة أسلوبه .

إنهم يريدون انه كلام حسن القد ، وحسن القد صفة من الجمال . وانه كلام لطيف ، واللطف خفاء في السر .

(١) مادة رشق بالقاموس المحيط .
(٢) مادة أنق بالقاموس المحيط .

وانه خفيف على النفس والسمع سريع المروق الى القلب . وانه يمدّ عنقه ويتلفت كما تمد الظبية وتتلفت . وانه متقن محكم . وهذه كلها اوصاف ادبية تقرب إلينا المراد ولكنها لا تحدده ، ونحن نريد تحديده .

والمراد من هذا الوصف على التحديد ان التأنق والرشاقة التي وصف بها كلام البحتري شبيهة بالثوب المقدود ليتم به جمال الجسم أو ليسد نقصاً في جماله واستوائه ، فهو مقدود قدّاً فيه سر الصنعة وعين الصانع ويده ولباقته ومهارته ، بحيث يلفت الانظار ويستهوي النفوس .

وكل الاثواب عملتها اعين الصناع وايديهم ولباقتهم ، ولكنها لا تلفت نظراً ولا تجذب نفساً ، فما هو السر يا ترى بين الثوبين ؟ . ان السر كل السر في ادراك الصانع وشعوره بالجمال وقدرته على خلق ما شعر به جميلاً سوياً . وقد يكون السر في تكسر جزء من الثوب ، أو شده ، أو في سير خيط من الخيوط ليوفق الصانع بين شعوره ونظرة عينيه وعمل يده .

وأحسن ما يقال في ذلك تعبير عصرنا الذي يقول انه « سر الصنعة » فلا تسأل عنه . واليك فاستمع الى هـــذه التعبيرات لتسمع للبحتري عجبا . وسنخليها من الوزن لئلا تموّه عليك بدقات الالحان . وقد وقع عليها نظرنا في ديوانه بغير اختيار ولا أناة !

عـذرت سيفي في نبوّ غراره — لا تحسبني قد اغتفرت

الوزء فيك - زجر النوتي فوق عَلاته - اذا سكبت سماء ثَنَتْ بسماء سكوب - شواغله من المجد تُعنّني - لبست منه مواهب ينشرن نشر الورد .

فاذا سمعت الى مثلها في أوزانها والحانها سمعتها اتم جمالاً واكثر استواء ، وهو يقول :

ماء وجهٍ اذا تبلج أعطا ك امانا من نبوة الدهر ماؤه

ويقول :

حساما نُصْرةٍ ويدا سماحٍ وبحرا نائلٍ يتدفقان

ويقول :

شرى بارع المجد مستظهرا على القوم في رفع اثمانه

ويقول :

ما المساعي الا المكارم توتا د والا مصانع المجـــد تبنى

ولعل صنعة البديع تلحق بالبحتري في هذا المكان ، وقد أولع بصناعته ، ولكنه كان أملح من حبيبٍ صنعة واحسن مذهبا ، فاذا اخذ منه شيئاً لم تظهر عليه الكلفة ولا المشقة [1] والفضل في ملاحة بديعه وقصد مذهبه يرجع الى ابي تمام من طريقين ، هما انه جسّره عليه فاقتحم امامه الباب ، ولكنه دخل فيما يعاب وحاد البحتري عن السبيل واكثر الحيد .

ولكن ابا عبادة طالما قلد ابا تمام في الافساد بالبديع فسخف كلامه وغث ومنه قوله :

---

(١) العمدة ج ١ ص ٨٥

قـد بيّن البين المفرق بيننا   عشق النوى لربيب ذاك الربرب[1]
وقوله :
لتصدقني وما اخشاك تكذبني   ماذا تأملت او املت في امل[2]
وقوله :
كالبرى في البرى ويحسبن احيا   نا نسوعاً مجدولة في النسوع
وهو غريب سخيف .

تنضيد المعاني

ونتج من صحة النسب في ازدواج ألفاظ البحتري اول ثمرة وهي صحة المعاني الكبرى ، فان المعنى يفسد بفساد جزئـه ويصلح بصلاحه ، والمعنى الصحيح كقول البحتري :
زرعت رجاء في ذراك مبكرا   وُجل حصاد المرء من حيث يزرع
ثم نتـــج ايضاً ان اقتدر البحتري على احسان تأليف الكلام فعوض بذلك النقص الذي لحقه من قـلـة محفوظه وضعف ذكائه عن ابي تمام ، ولمعت عباراته واساليبه عن ذلـــك الناتج من الحفظ الكثير ، واستطاع البحتري ان يتخلص من ظل استاذه وان يرسل هو ظلا جديداً في العربية مطبوعاً بطابعه مؤرجاً بنسيمه . وقد أسلمته هذه النتائج الى درجة أعلى وهي تنضيد المعاني .

والتنضيد يكون بأشياء كثيرة وضع البلاغيون لكل نوع منها اسما ، واهمها فيما يتصل بدراستنا استيعاب المعاني جمعاً

(١) الوساطة ص ١٧٩
(٢) الديوان ص ٢٣٢

و تفريقاً ثم اتقان التناسب في المقابلة او المشابهة ثم مضاعفة عملية الازدواج .

قال البحتري يمدح ابن خاقان في لقاء الأسد :

حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ولايدك ارتدت ولا حده نبا

وكل الصور الممكنة ، والتي تمكن الشجاع من الضرب ، قد أتى بها البحتري في هذا البيت ، فعزم النفس وانطلاق اليد وحدّ السيف المرهف هي عوامل الضرب ، وليست هناك عوامل غيرها ، وبهذا يكون البحتري قد سدّ على السامع اماكن الظن في النقص حين جاء بهذه الصور كلها .

ومثله قوله :

انت اندى كفاً واشرف أخلا قاً وازكى قولاً واكرم فعلا

وليس المرء الا بدنا وروحا وقولا وفعلا ، فلم يبق بعد ذلك شيء .

وقال البحتري :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائي الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

فقد جمع البحتري الاسنان والكلام في صفة واحدة هي مشابهة الدر ، ثم عاد إليهما ففرق بينهما ، وجعل لكل منهما حالا تميزه عن صاحبه ، فالاسنان مجلوة للنظر عند الابتسام ، والكلام مجلوّ للسمع عند التساقط [1] .

ولما كانت الاشياء تتميز باشباهها او اضدادها كان من الضروري ان يقع في كلام الناس مقابلات بالضد او مشابهات

---

(١) شرح عقود الجمان ص ١١٩

بالشكل والمجاورة لتتضح المعاني وتبرز حياتها بالتعاون او التخالف ، ويكون هذا العمل ركنا من اركان التنضيد .

والبحتري يجمع المعاني المتقابلة في مثل قوله :

رائح مغتدٍ بحلم ثقيل راجح وزنه وفهم خفيف

ومثل قوله :

يبجل اجلالا ويكبر هيبة اصيل الحجا فيه تقىً وتواضع
وتسودّ من حمل السلاح ولبسه سرابيل وضاح به المسك رادع

ويأتي البحتري في جمع الامور المتناسبة بالجيد الرائع فيقول في الابل التي انحلها السير :

كالقسيّ المعطفات بل الاسـ ـهم مبرية بل الاوتار

وقد شبّه البحتري الابل بالقسيّ في الرقة والانحناء ، فلما أراد تكرار التشبيه نظر الى ما يناسب القسيّ ، ليظل مع السامع في جو واحد . ولئلا يفرق خاطره بالمباعدة بين الاشياء جاء بالاسهم وبالاوتار .

•

ثم حدث من البحتري في تنضيد المعاني ازدواج مركب ، وذلك بأنه كان يقرن شيئاً الى شيء ، ثم يأتي فيهما بشرط وجزاء ، ويجعل في الشرط ازدواجين وفي الجزاء ازدواجين ، وذلك مثل قوله :

اذا مانهى الناهي فلجّ به الهوى أصاخت الى الواشي فلج بها الهجر

فقد جاء الشاعر بالعاشق وحبيبته ، ثم جاء بشرط وهو نهى الناهي ، وجزاء وهو الاصاخة ، وجعل في الشرط ازدواجين

من نسبة النهي للناهي واللجاج الى الهوى ، وفي الجزاء ازدواجين من نسبة الاصاخة اليها واللجاج الى الهجر .

ولا يخفى عنك ان في البيت تضيداً آخر من المقابلة ، وتضيداً ثالثاً من الجمع بين الهوى والهجر في صفة اللجاج .

ولو قرأ قارىء هذا البيت قبل هـذا الكلام لبان له واضحاً وسهلاً شأنه شأن كل مخترع دقيق وصل الى يدنا لاستعماله ، فانه يبدو رخيصاً هيناً ، ولكننا لو نظرنا اليه لنفهم تركيبه لراعتنا صعوبته . ان هـذا البيت الذي تراه أمامك بهذه السهولة مخترع معقد التركيب كما رأيت وكأنه آلة من آلات زماننا .

ومثل هذا قوله :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

فجاء بالعداوة والقربى في شرط وجزاء ، وجعل في كل منهما ازدواجين ، وجعل في البيت تعقيدات أخر يسهل عليك إدراكها . ومن العجيب انك وانت ترى للبحتري هذا التعقيد الدقيق لاتكاد تدرك انه خالف طبعه او اغرب في معناه .

ولعل الجرجاني يقصد بقدرة البحتري على اظهار المعقد مظهر القريب المألوف ما قصدنا اليه نحن ، وذلك حين يقول : وانك لاتكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ، ورد البعيد الغريب الى المألوف القريب مايعطي البحتري أو يبلغ في هذا مبلغه ، فانه ليروض لك المهر

الأرن رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلل ، وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع[1] .

●

ويقول الجرجاني بعد ذلك الكلام : « ثم لايمكن ادعاء ان جميع شعره في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل النظر ، كقوله : فؤادي منك ملآن ، أو قوله : عن أي ثغر تبتسم . وهل ثقـل على المتوكل قصائده الجياد حتى قلّ نشاطه لها واعتناؤه بها الا لانه لم يفهم معانيها كما فهم معاني النوع النازل الذي انحط له إليه ؟ أتراك تستجيز ان تقول : إن قوله : منى النفس في اسماء لو تستطيعها ، من جنس المعقد الذي لا يحمد ، وان هذه الضعيفة الاسر الواصلة الى القلوب من غير فكر أولى بالحمد وأحق بالفضل؟[2]

ويرى الجرجاني في مركوز الطباع ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له والاشتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، وكان موقعه من النفس أجلّ والطف وكانت النفس به أضن وأشغف ، ولكن لا الى الحدّ الذي يتعب الفكر ويجهد البحث ، وانما هو بقدر ما يحتاج اليه ، وضرب لأقواله هذه أمثالاً منها قول البحتري :

ضحوك إلى الابطال وهو يروعهم وللسيف حدّ حين يسطو ورونق

(۱) اسرار البلاغة ص ١٢٤
(۲) اسرار البلاغة ص ١٢٤

معراج الرقي

عرفت فيما سبق ان البحتري سار في طريق منتظمة صاعدة في الدراسة ، وقد سارت معانيه معه في نفس الطريق ، سارت دائماً في مدارج الرقي حتى أوفت على التمام ، أو مات وفي نفسه منها شيء . وكان البحتري في اول امره يعالج المعنى فاذا هو ناقص أو هو خطأ ، ثم لايزال يعالجه حتى يذهب خطؤه ويسدّ نقصه ، ولكنه قد يلتوي عليه ، فاما ان يجيء ضعيف الصنعة ، أو قليل الاستواء ، ولكنه لا ييأس منه بل يحتال عليه ويظل يبعد به عن التكلف ويرقى به حتى يصل .

ولا أريد بهذا ان كل معانيه تسير في هـــذه المراحل درجة درجة ، فقد يستوي له المعنى لأول وهلة وقد يزاوله مرتين او اكثر ، وقد يقول الجيد ويريد ان يقول اعلى منه فاذا هو يعود به ضعيفاً . ونضرب لك هنا أمثالاً تدلك على طريقة سيره في ترقية معانيه :

قال أبو تمام وأخذه من ابي نواس :

يستنزل الأمل البعيد ببشره بشرى المخيلة بالغياث المغدق
وكذا السحائب قلما تدعو إلى معروفها الروّادَ مالم تبرق

أخذه البحتري فقال :

كانت بشاشتك الأولى التي بدأت
بالبشر ثم اقتبلنـــا بعدها النعما

كالمزنة استؤنفت أولى مخيلتهـــا

ثم استهلت بغزر تابَعَ الديمـــا

فقال ابو عبد الله القطربلي للبحتري : وقعت دون ابي تمام في هذا المعنى ! فقال له البحتري : لعمري ! ولكن سأرضيك فيه ، ثم عالجه فحسّنه ، فكان مما قاله لأبي الصقر :

بوليك صدر اليـوم قاصية الغنى

بغوائد قد كنّ أمس مواعـدا

سوْم السحائب ما بـدأن بوارقا

في عارضٍ الا اثنين رواعـدا

فأحسن ، إذ الرعد لا يكون إلا ومعـه الغيث فكأنه قال : إلا اثنين مواطرا . ولكنه ظل ناقصاً . ثم مازال يردّه ويقول فيه حتى قال :

ضحكات في إثرهن العطـــايا وبروق السحاب قبل رعوده

فأخطأ ، حيث أقام الرعد في معنى الامطار ولم يسبقه أحد إلى ذلك [١] ثم أوفى على الغاية فقال : [٢]

متهلل طلق إذا وعد الغنى بالبشر أتبع بشره بالنائل

كالمزن إن سطعت لوامع برقه أجلت لنا عن ديمة أو وابل

وقد سبق أن أخطأ في هذا المعنى وهو يحاوله فقال :

سقى أرضه هطلان السحا ب إذا التهب البرق من رعده

فهل هذا صحيح ؟ إن البرق والرعد يحدثان في السحابة

(١) الموشح ص ٣٤٢

(٢) ديوان المعاني ج ٢ ص ٢١٧

معاً في وقت واحد ، وإنما يصلنا ضوء البرق قبل صوت الرعد لسرعة الضوء وبطء الصوت ، فكان الاولى ان يعكس البحتري المعنى فيقول : إن الرعد صوّت مذعوراً من البرق .

ومن امثلته في ترقية معانيه قوله يمدح ابن خاقان :

يا بؤس نفس عليها جدّ آسفة   وشجو قلب اليها جدّ مرتاح
تهتز مثل اهتزاز الغصن أتعبه   مرور غيث من الوسميّ سحّاح

فهل يتعب الغصنَ مرورُ الغيث ؟ . ولكنه عاد الى المعنى فأصلحه في مدحه للمنتصر فقال :

وتهتز بهزة غصن الأرا   ك عارَضَه نسمُ ريحٍ خصِر

ومن تشبيهاته التي قصر فيها ثم عاد فاصلحها قوله :

صفة الحرّ أن تناهى علاه   وكذا الحول أن تناهى شهورُه

فليس هناك مقاربة بين الحرّ والحول . وقد عاد عليه بالاصلاح فقال :

متى يذهب مع الايام ينفد   نفاد الحول تنفده الشهور

فاستقر التشبيه في موضعه .

ومن معانيه التي ألح عليها بالتهذيب والاصلاح حتى بلغت غاية الكمال قوله :

سام بالمجد فاشتراه وقد با   ت عليه مُزَايداً للسحاب
واجد القصد طرفه في ارتفاع   من سموّ وكفه في انصباب

ثم عاوده فقال :

لا تنظرن إلى الفياض من صغرٍ
في السنّ وانظر إلى المجد الذي شادا

ان النجــوم نجوم الليل أصغرها
في السن أذهبهــا في الجو إصعادا

وقال في مثله :

دانٍ على أيدي العفاة وشاسعٌ   عن كل ندٍّ في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه   للعصبة السارين جدُّ قريب

ثم عاوده فقال فيه قولة لم تدع لأحدٍ بعده أن يمسه فقال :

دنوتَ تواضعاً وعلوت فخراً   فشأناك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى   ويدنو الضوء منها والشعاع

•

وهكذا كانت محاولات البحتري للرقي بالمعنى إذا استعصى عليه فلم يجده ، أما إذا وجده فإنه يأخذه ويحسنه حتى لا يبقى لصاحبه حق فيه ، ومن ذلك قول بشار : [1]

ذات الثنايا العِذاب   من دونهن عذابُ

أخذه فاقتدر عليه وحسّنه قائلًا :

سقَم دون أعــين ذات سقم   وعذابٌ دون الثنايا العِذاب

وقال ابو نواس :

بح صوت المال ممـا   منك يشكو ويصيح

أخذه البحتري وأصلحه قائلا :

فـكم لك في الايام من يوم وقعة   طويل من الاهوال فيه عويلها

وفي موازنة الآمدي ما يشفي ويغني في هـذا الباب . غير ان هناك خلافاً بين المرزباني صــاحب الموشح وبين

(١) الموازنة ص ١٣٤

الآمدي صاحب الموازنة ، فالموشح يدعي ان البحتري سرق من ابي تمام خمسمائة بيت [1] .

والموازنة تدعي ان المعاني التي أخذت من ابي تمام خاصة لا تزيد على مائة بيت [2] . والمسألة بينهما مسألة عدد ، اما عندنا فهي مسألة ارتقاء بالمعاني او انخفاض بها .

●

وقد أحسن البحتري عملية قلب المعـــاني ، فيأخذ معنى الشاعر ثم يقول في ضده ، ومن ذلك قول عنترة :

واذا سكرت فانني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يُكْلَم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي

فعنترة يقول : إنه يستهلك ماله اذا سكر واذا صحا ، ولما كان الصحو لا يكون الا بعد السكر فيكون الداعي الى كرم عنترة هو السكر في الحالين ، اخذه البحتري فقال :

وما زلت خلا للندامى اذا انتشوا وراحوا بدوراً يستحثون أنجما
تكرّمتَ من قبـــل الكؤوس عليهم فما اسطعن ان يُحدثن فيك تكرما

فجعل الكرم قبل السكر ، وهو أجود من قول عنترة كما ترى [3] .

ومن امثلة تصرفه في المعاني قول الأعشى :

---

(١) الموشح ٣٤٢ .
(٢) الموازنة ١٣٧ .
(٣) ديوان المعاني ج ١ ص ٣١٧

و كأس شربت على لذة ... واخرى تداويت منها بها

اخذ هـذا المعنى كثير من الشعراء . ويدعي ابو هلال ان كل من اخذ هذا المعنى قصر في العبارة عنه ، وادّعى انه لا يجوز ان يُؤتى بمثله ، فقصر ابو نواس حيث قال :

وداوني بالتي كانت هي الداء .

فحشا الكلام بما لا وجه له وهو قوله « كانت الداء » ، وقصر المجنون اذ قال :

ولا يتداوى شارب الخمر بالخمر .

وقال ابو هلال ولا يقع هذا مع قول الأعشى موقعا ، وقصر البحتري كذلك اذ قال :

تداويت من ليلى بليلى فما اشتفى
من الداء من قد بات بالداء يشتفي [1]

وانا أرى المجنون والبحتري لم يقصرا ، ولكنهما انكرا على الأعشى صدق قضيته ، غير ان البحتري جاء احلى من قيس مرتين : الاولى انه قدم للأفكار دليلا وهو انه جرب الدواء فلم يفده كما أفاد عنترة ، والنفوس تفترق في الانتفاع بالدواء . والثانية انه نقل المعنى من الخمر الى الغزل نقلا رائعاً محموداً .

●

وعدّت للبحتري معانٍ دقيقة قد بلغ الغاية في تصويرها وتوضيحها ، ومنها قوله يمدح :

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٣٢٩

اذا سـار كف اللحظ عن كل منظر

سواه وغض الطرف عن كل مسمع

فلست ترى الا افاضـة شاخص

إليه بعـين او مشير باصبـع

ومنها قوله :

ويخشى شذاه وهو غـير مُسلّط

وقد يُتوفى السيف والسيف في الغمد

ومنها قوله :

ولما رأيت الخطب ضنكاً سبيـله

وقـد عظم المكروه واستفظع الأمر

عزمتَ فلم تقعد بعزمك حـيرة الـ

ـمَروع ولم يسدُد مـذاهبك الذعر

ومن اجود ما قال ولا مثيل له :

طلبتَ دخول الشرك في ارض الهدى

بين المـداد وألسن الاقـلام

فانظر الى دقته في تصوير منع الاقلام عن الكتابة في الشطر الثاني .

وليس ادقّ منه نظراً والتفاتاً في قوله :

إن الخطوب طوينني ونشرنني   عبث الوليد بجانب القرطاس

ومن معانيه التي أفردوه بها قوله :

من قهوة تُنسي الهمومَ وتبعث الشوق الذي قد ضل في الاحشاء

يخفي الزجاجة لونُها فكأنها   في الكف قائمة بغير اناء

وقوله وهو أقرب ما اتصل فيه الادب بالفنّ ، وذلك في وصف ايوان كسرى :

تصف العين أنهم جدّ أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيـابي حتى تتقراهمُ يـداي بلمس

وسنعود اليه عند الكلام على وصف القصور .

ومن أروع ما قال وأدقه :

قوم إذا لبسوا الدروع لموقف لبستهم الاعراض فيه دروعا

وقوله :

في معركٍ ضنك تخال به القنا بين الضلوع اذا انحنين ضلوعا

●

ولسنا ننتهي اذا تتبعنا البحتري بيتاً بيتاً من عرض محاسنه ودقائق فنه الجزئية ، ومع كل ذلك فقد قالوا ان البحتري ظل يخطىء في الشعر حتى آخر ايامه ، ولم يعد على ما اخطأ فيه بالاصلاح ، وذلك مثل قوله في رثاء المتوكل :

محلٌ على القاطول أخلق داثره

فقالوا انما يقال دَثرُ مخلقه ، ولا يقال أخلق داثره ، لأن الشيء الذي دثر لابقية له حتى تخلق او تستجد[1] ولكن يُرد على هؤلاء بأن المراد من اخلق داثره دثر مخلقه وهو قلب جائز في لغتنا .

وقالوا ان البحتري أبعد في الاستعارة ولم يصب حيث يقول :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمـة بسواد

(١) الموشح ص ٣٣٧

قالوا ان البيت ليس على السكة المختارة، وقوله «لاطخ جوانبه من ظلمة بسواد» من بعيد الاستعارة.

وعابوا عليه قوله :

لمسرين قوافي الشعر معجلة ما بين مُسَيّره المثلى وشرّده

فقال بعض الكتاب للبحتري : قد رددت الضمير في سيره الى القوافي ، فقل سيرها . وكان في المجلس رجل من انصار البحتري حاضراً فقال له : انما رده الى الشعر . فقال البحتري : لا عدمتك عضداً وناصرا [١] .

●

ويرى النقاد ان غربة البحتري ورحلاته كانت عاملا قويا في انضاج شعره ، شأنه في ذلك شأن كل شاعر غريب عن بلده ، فانه يعمل ليعيش ابداً ، ويخشى ان يزل ، وحاله في ذلك حال الاقلية لاسند لها الا منها ، وقد قال اسماعيل بن رغبان : ما اصفى شاعر مغترب قط [٢] .

بناء القصيدة

النقاد مختلفون في ابتداءات قصائد البحتري فبينما يراها ابن رشيق ضعيفة اذا قيست بباقي ابيـــات القصيدة يفضله القاضي الجرجاني صاحب الوساطة [٣] بجودة الاستهلال على ابي تمام والمتنبي ، ويفضلها عليه بالتخلص والانتقال من

(١) الموشح ص ٣٤٠

(٢) العمدة ج ١ ص ١٤٢

(٣) الوساطة ص ٣٧

غرض الى غرض و كذلك يفضلها عليه بالخاتمة .

وابن رشيق يأبى أن يخضع لرأي الجرجاني في ذلك ، ويرى ان الموازنة التي عملها الجرجاني بينه وبينهما كانت ظالمة إذ اعتمد الجرجاني فيها على رأي الحاتمي ، والحاتميّ رجل يحسد البحتري ويغض من شأنه غضاً شديداً ويجور عليه جوراً بيناً [1] . وحديث الحاتمي في البحتري طويل ولم نر لنقله هنا من ضرورة [2] .

والآمدي يفضل ابتداءات البحتري ويتحزب له ، وهو صاحب الموازنة والترجيح بين الطائيين ، وقد نوه في كتابه بالبحتري اعظم تنويه .

●

ومن الحق أن يقال ما هو بين بين ، فلا يعطى البحتري فوق حقه ولا يغمط قدره ، فللبحتري مطالع قوية واستهلالات رائعة ، وله كذلك مطالع واهنة جداً ، ولذلك سرّ سنأتي عليه ، ومن مطالعه القوية التي يعزّ مثيلها :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها
نعم ونسألها عن بعض أهليها

قف بوادي الأراك فاحبس قليلا
مقصراً من ملامة أو مطيلا

---

(١) العمدة ج ١ ص ١٥٥

(٢) انظر حديث الحاتمي في البحتري زهر الآداب ج ٣ ط ٢ ص ٢٠ .

صنت نفسي عمـا يدنس نفسي

وترفعت عن جـدا كل جبس

وهذه الجيدة وتلك الضعيفة كثيرة جداً ، ولكننا نريد أن نكشف هنا سر ذلك الضعف حيناً والقوة حيناً آخر ، لندرك منه ذلك التفاوت الذي حدث أيضاً في شعر البحتري . واليك البيان :

إن البحتري حين كان ينظم القصيدة لم يكن ينظمها بالترتيب الذي تظهر به على الناس ، بل كان البحتري يملي من القصيدة ما يقف عليه من المعاني ، ثم يغيب عنها ويأتيها بما يسبق ما أملاه أو ما يلحق به حتى تتم القصيدة . وقد تلمح أنت له في بعض قصائده مـا يدلك على ذلك . فأنت ترى أنه قد يصرّع في القصيدة مرة ومرتين وثلاثاً ، وما ذلك إلا لأنه يذهب عن القصيدة ثم يعود اليها وكأنه عوْد ابتداء ، ولو كان يلزمها لما صرّع فيها غير مطلعها .

ودليل آخر ، وهو أنك ترى البحتري ضعيفا ، حتى اذا مضى في القصيدة بعض خطوات رأيته قد قويَ ، ثم ازداد قوة ، ثم ازداد حتى يبلغ الغرض . وقد يظل دائماً قوياً حتى النهاية ، وقد يعود الى الضعف . ومـا ذلك إلا لأنه كان ينشىء أبيات الغرض المقصود أولاً ثم يعود إلى حشوهـا بالأغراض الأخرى ليكملها .

ودليل ما قلنـاه أن ابنه أبا الغوث حـدّث أن أباه أجبل عشر سنين ، فما كان يستطيع أن يقول بيتاً واحداً

من الشعر ، ثم دعا ابنه في وقت من الأوقات فجاء اليه فأملى عليه .

أملى عليه ابتداء قصيدة كان قد قال بعضها ، وأملى عليه وسط قصيدة أخرى ، وأملى عليه قطعة مدح من قصيدة ، وأملى عليه تشبيهاً في قصيدة . فسأله ابنه عن فعله هذا ، وظن أنه من أشعار قديمة له أخذ يمليها عليه مخافة ضياعها ، فقال له : يا بنيّ ، قد عرفتَ المدة التي قطعت فيها قول الشعر ؛ ووالله ما كنت استطيع فيها أن أنظم بيتين ، وأما الآن فقد اطّلعت فيها طَلع بحر من الشعر لا يُلحق غوْرُه ![1]

وتستطيع أن تدرك من هذا أن القصائد التي كان عملها البحتري قبل ان يُجبل كانت ناقصة ، بعضها من الاول ، وبعضها من الوسط أو غير الوسط ، فجاء يكملها . وحاله من قبل الاجبال يدلنا على كيفية صناعته . وقد غاب هذا السبب على ابن رشيق فقال[2] : ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له ، ثم يجيد باقي القصيدة ، وأكثرهم فعلا لذلك البحتري ، كان يصنع الابتداء سهلاً ويأتي به عفواً ، وكلما تمادى قوي كلامه . ولا ندري كيف غاب السبب على ابن رشيق !

وتستطيع أن تعلم أيضاً أن البحتري ما كان ينشيء

---

(١) الموشح ص ٣٣٣

(٢) العمدة ج ١ ص ١٥٥

شعره قصيدة قصيدة ، وإنما يفتح لنفسه أغراضاً كثيرة من القول ، وينشيء لكل غرض بحراً وقافية ، ثم يجعل يزيد في هذه ويزيد في هذه حتى يكمل لكل غرض قصيدته . وأمر البحتري في ذلك غريب حيث يملي في بحور تتعدد انغامها وتختلط ، وينشيء في قوافٍ متنوعة وأغراضٍ شتى ، وهو جهد لا يقدر عليه الا مثله .

ولسنا ندري الاسباب التي أخمدت ذهن البحتري وعطّلت لسانه عشر سنين — لو صحّ هذا الخبر - وهي مدة طويلة بالنسبة لرجل كان لا يفتأ وهو شاب ينشد الباعة ، ولكنها حـــالات تعتري ذوي الطبع ولا تعتري ذوي الصنعة . والغريب أيضاً في أمر هذا الاجبال أنه وقد ظل عشر سنوات لم يُمتْ خاطر البحتري ، فلما صحا منه صحا اتم ما يكون حدّة في الطبع وقدرة على الانشاد .

•

وكان من شعراء الجاهلية والاسلام من هذب شعره ، وزهير معروف بحولياته ، والحطيئة كان كزهير يقضي في القصيدة اشهراً معدودة . ونهج على الدرب من المولدين ابو نواس فألقى اكثر قصيدته ولم يبق إلا عيونها ، فجــاءت قصائده بينة القصر . ثم تبعهم البحتري فألقى من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً . اما ابو تمام فكان لا يفعل ذلك ، وكان يرضى بأول خاطر فنعيَ عليه

عيب كثير [1] .

وربما كان تهذيب البحتري لشعره منصبا على المعاني الخاطئة ، فان استقام له المعنى أبقاه وإلا القاه برمته . وربما كان يعود على الالفاظ فيضع لفظاً مكان لفظ حتى تنصع الالفاظ ويلتئم الكلام ، فان قدر عليه أبقاه والا قذف به . ولا بد لنا من هذا التخمين والظن فان احداً لم يدلنا على شعره المحذوف حتى نعلم سبب حذفه . وكل ما بلغنا ان ابنه أبا الغوث حدّث أن أباه أمره قبل موته بحذف هجائه ابقاءً على مودة الناس وخوفاً على ابنه ، وما نظن أن أبا الغوث حذف شيئاً قط لانه كان يغضب أن يصلح الناس بيتاً واحداً لابيه غير موزون .

قالوا أنشد أبو الغوث قصيدة لأبيه فيها هذا البيت :

وكأنّ الايام أوثِرَ بالحسن عليها (يو) مُ المهرجان الكبير

انشد أبو الغوث البيت هكذا ، وهو من بحر الخفيف والياء والواو في كلمة يوم زائدتان على الوزن ، ونظر السامعون في النسخ التي في ايديهم فكانت متفقة على هذا البيت المكسور ، فقالوا له يا أبا الغوث ، ألا ترى إلى هذا الغلط على أبي عبادة الذي لا يتهم بمثله ، وقد أجمعت النسخ عليه ! فقال : هكذا قال الشيخ . فأقبلوا عليه يوضحون له موضع الكسر ويقطعونه له ويزنونه بالبيوت التي قبله والتي بعده ، وهو غير مستنكر له بذوقه ، وساموهُ تغييره فأبى

---

(١) الصناعتين ط ٢ ص ١٣٥

ذلك وقال : « أغيّر شعر الشيخ ؟ » فقيل له : هذا رجل قد وجب له علينا حق وسار له فينا مدح ، ويلزمنا تغيير هذا الكسر حتى لا يعاب به ، فغضب حتى ظهر فيه الغضب ظهوراً لم يستحسنوا معه أن يزيدوا في الكلام [1] .

●

وكان من التهذيب تلك المحاولات الدائبة في رجوعه عن اخطائه واصلاحه للمعاني التي لم تكن مستقيمة من قبل . والبحتري نفسه يقرّ أنه كان يدأب على تحصيل المعنى ويصبر عليه حتى يتطامن له ويسلس . ومن أحسن معانيه التي جدّ وراءها أزمنة طويلة حتى وجدها قوله :

لم يدعني كرّ العشيات والآ صال حتى خضبت بالمقراض

فلما عثر على هذا المعنى قال : مكثت في « حتى خضبت بالمقراض » اربعين سنة حتى اتممتها [2]

●

ولم تكن كسرة ذلك البيت في الوزن هي كل ما اتهم به شعر البحتري من ناحية الوزن فانهم اتهموه بأنه كان لا يقيم وزن الشعر أحياناً . وقد روي عنه شعرٌ ملحون من اكثر من طريق ، وقالوا : لو تُتبع اللحن في شعره لكان اكثر من هذا الذي روي واشتهر . وقد هجاه ابن أبي طاهر على لحنه الكثير هجاء مرّاً مقذعا [3] ، وإن كان هذا عيبا فأى الناس ليس له عيوب !

---

(١) الموشح ص ٣٣٠

(٢) و (٣) الموشح ص ٣٣٣

الباب الثالث

مشهور شعره

●

المشهورات ــ الاوصاف ــ اغراض متفرقة ــ ظاهرة في مدح المتوكل ــ الشكوى من الخراج ــ الطيف والشيب ــ الحكمة والشعر .

المشهورات

تنقسم مشهورات البحتري ثلاثة أقسام : قسم كان من الابيات المفردة أو أنصاف الابيات ، ومن ذلك ما اشتهر وشاع شيوع الحكم والامثال ، وفقد بهذه السيرورة على افواه الناس نسبته إلى البحتري ، فما يدري احد انه قائله ولا من قاله لانه اصبح ملكا مشاعاً ، ومن طبيعة الاقوال السائرة ان يُهتم بها لذواتها دون التعلق بقائليها ، وهذا في نظري افضل ما يأتي به أديب وحتى لو نسي اسمه ، لانه يكون أعم نفعاً واكثر استعمالاً شأنه في ذلك شأن كل مخترع لا قيمة له إلا إذا اقبلت عليه سوق البيع والشراء .

ونحن نردّ للبحتري بعض ما سار من شعره على أفواه الناس دون أن ينسبوه إليه ، ومنه قوله :

وهل يتكافا الناس شتى خلالهم   وما تتكافا في اليدين الأصابع

وللباني اليد العليا على الهادم

ولن تستبين الدهر موضع نعمة   اذا انت لم تُدلل عليها بحاسد

اواخر العيش اخبـار مكررة   وأقرب العيش من لهو اوائله

الأرض من تربة والناس من رَجُل

متى أرت الدنيا نباهة خامل   فلا ترتقب إلا خمول نبيـه

للسيف حـدّ حين يسطو ورونق

في الأطراف تُغشى اماكن الأشراف

واشهر قول له قوله :

اذا ما الجرح رُمَّ على فسادٍ   تبين فيه تفريط الطبيب

•

واشتهر من شعره قسم آخر كان من المقطوعات المستقلة ، أو اقتطع من القصائد ، وذلك مثل وصف السحابة الماطرة ، وقد سبق ان جئنا به عند الكلام على الازدواج ، ومثل وصفه المشهور للربيع واول ابياته :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتى كاد ان يتكلما

ولا يخفى ان المشهور عند الادباء والدارسين يكون اكثر مما اشتهر عند الجمهور ، ويكون اقل طبقة في الشهرة من الذائع على كل الألسنة ، وكذلك يكون اطول واذهب في الفن وأوغل في الدقة . ومنه بعض قطع في المدائح ،

وقطع من الغزل ، وقطع في تحسين الشيب ، وسنعود الى بعضها عن قريب .

والقسم الثالث من مشهوراته قصائد كاملة ، وذلك كقصيدته في رثاء المتوكل وقصيدته السينية في ايوان كسرى .

والأسباب التي اصابت هذه الاقسام بالشهرة من شعر البحتري انما هي نفس الاسباب التي تعمل على اذاعة الافكار الصحيحة ، والعمل على دوام بقائها صالحة في كل زمن وكل بلد وعلى كل لسان . واسباب البحتري خاصة في ذيوع مشهوراته وبقائها انه استوحى بعضها من حال الناس عامة ، فانتجت الحكمة ، واستوحى بعضها من صور الجمال الدائم أمام كل العيون كصفته للربيع ، واستوحى بعضها من العواطف الخالدة ، او عظمة التفكير ، كما حدث في رثائه للجعفري وللايوان ، فانه قد ارتحل اليهما بفنه وحزنه . وانما كانت وقفته امام الايوان اعظم لأن الحسرة كانت قد ملكت عليه كل جوانبه ، وكان لكارثة الجعفري الفضل كله في انضاج عاطفة الحزن عنده واعلاء افكاره ، فقال ما قاله في الايوان .

وشيء آخر هام جداً كان له القيمة في علوّ فن البحتري بسينيته [1] ، وذلك انه كان قد عاش في قصور المتوكل ، ورآها وهي تبنى وتشيد وتنجد ، ورأى بسائطها وعقدها ، وسمع الى مهندسيها وبناتها . فقد كان نديماً للمتوكل – كما

(١) الديوان ص ١٦٧

عرفنا من قبل – وكان كلما حاول وصفها أحس بها معقدة كثيرة التركيب فبالغ في وصفها ليخلص الأدب من ورطة ضعفه عن وصف الفن المعقد .

ولكنه مازال يقرب الادب من الفن ، ويحاول التعبير حتى جعلهما يلتقيان ، واستطاع في وقفته امام الايوان ان يعبر مرتين : مرة بالمبالغة التي تعودها من قبل ، وذلك في مثل قوله :

مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ ـصر منهـا إلا غلائل برس
ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس

ومرّة بالدقة التي تعلمها من عقد القصور ، فقرّب الشاعر من المهندس ، أو من رجل الآثار في وصفه للآثار الباقية من الايوان ، وبلغ البحتري في سينيته هذه الغاية التي تتقصف دونها الاقلام ، قال :

فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنـايا مواثل وانو شر وان يُزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على اصـ ـفر يختال في صبيغة وَرْس
وعراك الرجـال بين يديه في خفوت منهم واغماض جَرْس
من مشيح يهوي بعامل رمح ومُليح من السنان بترس
تصف العين انهم جد أحيـا ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيـابي حتى تتقراهمُ يـداي بلمس

وانظر الى البيتين الاخيرين فانهما فوق جهد الاديب ،

ولن يتقرى الصور الصامتة في الآثار أو يعرف اخبارهـا ويكشف اسرارها الا رجل الآثار .

على ان هذه السينية كان الغرض الاصيل فيها رثاء الايوان والتنفيس عن الكرب بهذه اللغة الحزينة التي تُبكي كل من يتفطن لها لا محالة ، واستمع اليه يقول فيها :

وكأن الزمان اصبح محمو لا هواه مع الأخس الأخس
واشترائي العراق خطة غبن بعد بيعي الشآم بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختباري عند هذي البلوى فتنكر مسي
وقديماً عهدتني ذا هنات آبيات على الدنيات شمس
ولقـد رابني نبوّ ابن عمي بعد لين من جانبيه وانس
واذا ما جفيت كنت حريا ان أرى غير مصبح حيث امسي
حضرت رحلي الهموم فوجهـ ـت الى ابيض المدائن عنسي
اتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي

بل ان البحتري ينقـل حزنه في السينية الى الايوان ويصوره كئيباً حزيناً يبعث اللوعة ويثير الشجن . ويقول :

وكأن الايوان من عجب الصنـ ـعة جوب في جنب ارعن جلس
يُتظنى من الكآبة ان يبـ ـدو لعيني مصبح او ممسي
مزعجاً بالفراق عن أنس الفـ ـعز او مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات الـ ـمشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي
لم يعبه ان بز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس

حتى الخمرة يشيع فيها حزنه بقوله :

وتوهمت ان كسرى ابرويـ ـز معاطيّ والبلهبذ أنسي
حلم مطبق على الشك عيني ام امانٍ غيرن ظني وحدسي

وهذه السينية دونها وصف قصور سامرا ، فقد كانت تلك الاوصاف أغراضاً ناشئة حول الاغراض الاصيلة من المدح او التهنئة .

وقد حاول شوقي ان يقلد سينية البحتري فلم يضيق على نفسه ويحصرها في وصف منظر واحد كما حصر البحتري نفسه وضيق عليها . وقد أجاد شوقي ولكنه لم يستطع ان يصل ما بين الادب والهندسة كما فعل البحتري . وبدا حزن شوقي في قصيدته حزن اضطرار للنفي ، اما البحتري فلم يكن مجبوراً ولكنه كان حزيناً حقاً فبث في اركان القصيدة نغمة تفجر القلوب [1] .

الاوصاف

ولو لم يمل البحتري الوصف في شعره لذهب اكثره بفناء اغراضه ، ولكنه حين استخدم فن الوصف أبقى على سمعة شعره ، وخلد بسببه اول ما خلد . اخبر الصولي قال : سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو لم يكن للبحتري الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته في البركة ميلوا الى الدار من ليلى نحييها ،

(١) انظر سينية شوقي في الشوقيات ج ٢ ص ٥٢

واعتذاراته في قصائده الى الفتح التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها ، وقصيدته في دينار بن عبد الله التي وصف فيها ما لم يصفه احد قبله ووصف فيها حرب المراكب في البحر ، لكان أشعر الناس في زمانه ، فكيف اذا اضيف الى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه [1] .

وابن المعتز لا يذكر هذه القصائد الوصفية لانها أقل شعره ولكنها أفضله بدليل انه ذكرها بذواتها ، فلما أراد باقي شعره وصفه بالصفاء والرقة ، وهكذا يفضل ابن المعتز البحتري من القليل لا الكثير .

وقد قلنا من قبل انه حين تعرض لوصف قصور العراق قابل دقتها بغلوه ، وهذه طبيعة تأثير الفن المعقد في الأدب . على ان وصف القصور وصف للمجسم ، وهو ناحية من غنى لغتنا ، والبحتري يرى هذا التجسيم قوة ، ويرى ان التعبير الجيد ما جسم لك المعنى كأنه صورة تراها . وفي ذلك يقول في وصف الالفاظ في الاسماع كالصور امام العيون [2] :

وكأنها والسمع معقود بها   وجه الحبيب بدا لعين حبيبه

واليك بعض اوصافه لتلك القصور . قال يصف الكامل [3] :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

رفعت لمخترق الرياح سموكه   وزهت عجائب حسنه المتخايل

---

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٦٣

(٢) العمدة ج ١ ص ٣٨

(٣) الكامل قصر المعتز بالله .

وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جُنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبُك الغمام رصفن بين منمّر ومسيّر ومقارِب ومُشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق
متلهب العالي أنيق السافل

ويصف « المشوق والمعشوق [1] » قائلاً :

لا زال « معشوقك » يلقى الحيَا
من كل داني المزن واهي الخروقْ
فما خلونا مذ رأيناه من فتحٍ جديدٍ وزمان أنيق
أشرفَ نظاراً الى ملتقى دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمسَ على موعد بمثل ضوء الشمس عند الشروق
لم أر كالمعشوق قصراً بدا لأعين الرائين غير « المشوق »
هذاك قد برّز في حسنه سبقاً وهذا مسرع في اللحوق

وقال في « الصبيح والمليح » [2] :

واستتم الصبيح في خير وقت فهو مَغْنى أنس ودار مُقام
ناظر وجهة المليح فلو يسـ ـطيع حياه معلناً بالسلام
ألبسا بهجةً وقابل ذا ذا ك فمن ضاحك ومن بسام
كالمحبيْن لو أطاقا التقاء أفرطا في العِناق والالتزام

---

(١) قصران للمعتمد .

(٢) قصران للمتوكل وكانا يجاوران الجعفري .

وكان لا بد ان يتعلق بوصف هذه القصور وصف بركها وانهارها وبساتينها واثاثها . ولما كان وصف بركة المتوكل من مشهورات البحتري فانا ندعه الى وصف اشياء اخرى كبساط قصر الساج الذي يقول فيه :

وأرى البساط وفي غرائب نبته ألوانُ ورد في الغصون مفتّق
خضرٌ على شجر ترف غصونه من مزهر او مثمر او مورق

فاذا تركنا هذه القصور وما فيها الى غيرها وجدنا للبحتري في الوصف فرادى وتؤاماً ولا سيما في وصف الحرب وأدواتها فهو يصف السيف في قوله :

يغشى الوغى فالترس ليس بجُنة من حده والدرع ليس بمعقل
ماضٍ وان لم تمضه يدُ فارسٍ بطلٍ ومصقول وان لم يصقل
مصغٍ الى حكم الردى فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعدل
متوقدٌ يفري بأول ضربة ما ادركت ولو انها في يذبل

ويصف السيف والرمح ويحسن الوصف في طاعة الجند لقائدهم ، وليس ابلغ منه فتأمله جيداً :

حمرُ السيوف كأنما ضربتْ لهم ايدي القيون صفائحاً من عسجد
في فتية طلبوا غبارك إنه رهج ترفع عن طريق السؤدد
كالرمح فيه بضع عشرة فقرة منقادة خلف السنان الاصيد

أما الحرب فقد قال فيها كثيراً وسنعرض عليك مما قال ثلاث قولات ، أولاهن في رجاء القائد ان يكفّ حتى يأتي الربيع ، والثانية في صفات الجند ، والثالثة وهي التي اشاد بها ابن المعتز في وصف قتال البحر . أما الاولى فيخاطب

فيها ابن يوسف الثغري في حربه للروم ويطلب اليه ان ينتظر الوبيع وهي :

رمى الروم بالغزو الذي ماتتابعت نوافذُه حتى أصبن المقاتلا
غزاهم فافناهم ولم يقتصر لهم على العام حتى جدّد الغزو قابلا
لك الخير أنظرهم لتنتجع الربا منورة أو تحلب الخِلف حافلا
فقد غرت بالغارات في وهداتهم ولياً ووسمياً رذاذاً ووابلا
وسقت الذي فوق المعاقل منهم فلم يبق إلا ان تسوق المعاقلا

وهذه الثانية في صفات الجند ، وما أروع تصوير التقاء السيوف بالسيوف فيها :

وعصائب يتهافتون إذا ارتمى بهم الوغى في غمرة الهيجاء
مثل اليراع بدت له نار وقد لفته ظلمة ليـلة سوداء
يمشون في زغف كأن متونها في كل معركة متون نهاء
بيض تسيل على الكماة فضولها سيل السراب بقفرة بيداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم تحت المنايا كل يوم لقاء

أما "مفضّلة" ابن المعتز وهي في وصف القتال في البحر فمنها هذه الابيات :

غدوت على الميمون[1] صبحاً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفيه ومرّ كأنما تشرف من هادي حصانٍ مشهر
اذا زمجر النوتي فوق عَلاته رأيت خطيباً في ذؤابة منبر
اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عُقاب في السماء مهجر

(١) الميمون اسم مركب القائد احمد بن دينار قائد الاسطول .

اذا ما انكفا في هبوة الماء خلته تلفع في اثناء بُرْدٍ محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسر
تميل المنايا حيث مالت اكفهم اذا اصلتوا حدّ الحديد المذكر
يسوقون أسطولاً كأن سفينهُ سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذا اختلفت ترجيع عَوْدٍ مجرجر

ولم يكن اعجاب ابن المعتز بها فحسب ، وانما قال فيها أبو هلال[1] : لم يصف احد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر .

وابو هلال يقول[2] : وأجود ما قيل في سكون الجاش في الحرب قول البحتري :

لقد كان ذاك الجأش جاش مسالم على ان ذاك الزيّ زيّ محارب
تسرع ،حتى قال من شهد الوغى لقاء عدوّ أم لقاء حبائب
وصاعقةٍ في كفه ينكفي بها على أرؤس الاقران خمس سحائب

وابو هلال يقول في البيت الاخير : وهذا البيت أجود ما قيل في معناه ، جعل السيف صاعقة ، واصابع الضارب سحائب تجود على من يبتغي معروفها من حيث تقتل اعداءه بصاعقتها .

ويتقلب البحتري بين الأليف والمفترس فتراه يصف الأبل قائلاً :

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٦٣
(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ١١٧

يترقرقن كالسراب وقد خُضْـ ـن غماراً من السراب الجاري
كالقسيّ المعطفات بل الأسـ ـهم مبرية بـل الأوتار

والبحتري أوصف المحدثين للخيل واكثرهم اجادة في نعتها[1] ومن شعره يصف فرساً قوله :

اما الجواد فقد بلونا يومه وكفى بيوم مخبراً عن عامه
جارَى الجياد فطار عن اوهامها سبقاً وكاد يطير عن اوهامه
جذلان تلطمه جوانب غرّة جاءت مجيء البدر حين تمامه
واسودّ ثم صفت لعينيْ ناظر جنباته فاضاء في إظلامه
مالت نواحي عُرفه فكأنها عَذبات أثل مال تحت حَمامه
ومقدم الاذنين تحسب انه بهما يرى الشخص الذي لأمامه
وكأن فارسه وراء قذاله ردف فلست تراه من قدامه
لانت معاطفهُ فخيل انـه للخيزران مناسب بعظامه
وكأن صهلته اذا استعلى بها رعدٌ يقعقع في ازدحام غمامه

واما وصفهُ للمفترس فسنعرض عليك بعض وصفه للاسد وبعض وصفه للذئب لتدرك غاية الفن في هذا الباب . وقد قال صاحب الوساطة في وصفه للاسد[2] انه استوفى المعنى واجاد الصفة ووصل الى المراد ، ومنه قوله يصف لقاء الفتح ابن خاقان له :

غداة لقيتَ الليثَ والليثُ مخدر يحـدد ناباً للقاء ومخلبا
اذا شاءغادى عانةً او عداعلى عقائل سرب او تقنص ربربا

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ١١٥
(٢) الوساطة ص ١٠٢

شهدتُ لقد انصفتَه يوم تنبري | لهُ مصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم ارَ ضرغامين اصدق منكما | عراكاً اذا الهيابة النكس كذبا
هزبراً مشى يبغي هزبراً واغلباً | من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدَلَّ بشغب ثم هالته صولةٌ | رآك لها امضى جناناً وأشغبا
فاحجم لما لم يجد فيك مطمعاً | وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه انْ كرَّ نحوك مقبلا | ولم ينجه انْ حاد عنك مُنكّبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى | ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

وهذا الوصف الرائع بين بطلين رآه صاحب المثل السائر تقصيراً عما جاء به المتنبي في وصف الاسد ، لان البحتري لم يخلص كل وصفه لليث [1] اما المتنبي فخلص وصفه له .

ووصف البحتري للذئب معروف وقصته شائعة في فصول الدراسة ، وهم يخلقون بينها وبين من وصفوا الذئب من العرب ومن غيرهم موازنات كما فعلوا في قصة وصف الاسد . الا ان الملحوظ ان البحتري حين وصف الاسد خلط حاله بحاله كما خلط بين الفتح والاسد ، وهذا في رأيي اقتداء بالفرزدق حين أضاف الذئب فتحدث عن حاله معه . وقد كان عمله خطوة فتحت للمتنبي طريق الوصف الخالص للاسد كما فتحت للشريف الرضي طريق وصف الذئب خالصا .

وقد اهتم العرب بوصف لقاء الاسد منذ القدم لان لقاءه شيء يهول [2] . وكان الذي يلقاه ويقتله يعد عمله مثال

---

(١) المطالعة التوجيهية ص ٢٧٦
(٢) يوم وليلة ص ٢٥

البطولة وله ان يدل به ويتغنى ، واعظم منه بطولة من قتل الاسد ولم يدل بقتله ولم يفتخر كما حدثوا عن المعتضد العباسي .

•

فاذا تركنا هـــذا الجد الصارم وملنا الى لهو البحتري رأينا عجبا ، واليك وصفه للخمرة والساقي :

وفي القهـوة اشكال   من السـاقي وألوان
حباب مثلمـــا يضحـ   ـك عنه وهو جذلان
وسكر مثل ما اسكـ   ـر طرف منه وسنان
وطعم الريق اذ جاد   به والصب هيمان
لنـا من كفه راح   ومن رياه ريحـان

اغراض متفرقة

لقـد سبقت اشارتنا الى تفضيل ابن المعتز للبحتري من اوصافه [1] . ثم اعتذراته للفتح بن خاقان ، وحقاً ان البحتري قد اجاد فن الاعتذار لان هذا الفن مقارب المدح والغزل في التخضع ، بـــل هو اكثر منهما اظهاراً للتذلل وارتداء لثياب الانكسار ، وهو يجد مادته وعونه من نفس الشاعر ورقة اسلوبه . وآلة البحتري في ذلك معروفة .

ولقد قيل انـ رقة البحتري واحتياله كانا كفيلين بان يغنياه عن المبالغة ، ولكنه بالغ ومـا زال يبالغ حتى زاد

(١) عبد الله بن المعتز ص ٤٩

شعره تنوقا [1] . وقد عرفنا من قبل تنوقه في الألفاظ ، فها قد صار تنوقه مضاعفا مزدوجا . وما بالك بالاعتذار وهو يطلب كلاما اكثر تنوقا من كلام المدح او العتاب !

وكان هذا الفن ابتكار النابغة دعته اليه الحضارة والترف واتصاله بملك من طراز ملوك الفرس وأكاسرته هو النعمان . والدواعي عند البحتري هي نفس الدواعي ، فالحضارة تغمره وقد غرق في ترف القصور العباسية واتصل بملك عربي الشكل فارسي الجوهر ، وهو في حاجة وتحنان الى العطاء . قال ابو هلال : ولا اعرف احدا من المحدثين بلغ مبلغ النابغة فيه الا البحتري فانه قد اجاد القول في صنوفه واحسن وابلغ ولم يذر لاحد مزيداً حتى قال بعضهم هو في هذا النوع النابغة الثاني [2] . وأيّ اعتذار الطف من قوله :

يريبني الشيء تأتي بـه ... واكبر قدرك ان استريبا
اكذب ظني بان قد سخطت ... وما كنت اعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطا لم أكن ... أذم الزمان واشكو الخطوبا
ولو كنت اعرف ذنبا لما ... تخالجني الشك في ان أتوبا
سأصبر حتى ألاقي رضا ... ك إما بعيدا وإما قريبا
أراقب رأيك حتى يصح ... وانظر عطفك حتى يثوبا

والاعتذار حتى يُقبل يجب ان تهب منه ريح الصدق ، ولا تشوبه شائبة الباطل ، فلا تخييل فيه ولا تمويه ، وانما

---

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ١٩٤
(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٩١

هو صدق صريح كله ، وهذا هو مذهب الاعتذار في الكلام . وعلى الشـاعر ان يتنصل من الذنب ولو بالحلف واليمين الغموس ، وعليه ان يحشو اقواله بالرجاء وطلب العفو . ولا يخفى عنك انه كلما أظهر الشاعر الضراعة والذلة كان ذلك أشفع له وأقرب الى القبول ، ولا سيما في تلك العصور التي كان الامر فيها للحاكم المطلق . اما الاعتذار الى الاصدقاء فقلما حمل شيئاً من معاني المذلة ، بل ربما خلط بالعتاب والقسوة فيه .

وقد قالوا : إن المعاذير مكاذب . فانه لا عذر في ردّ الاعتذار . والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له [1]

ظاهرة في مدح المتوكل

ولقد رأيت من قبل ما قاله عبد القاهر الجرجاني في معاني النوع النازل الذي انحط له البحتري الى المتوكل ، وهو حكم يصدق جد الصدق على كثير من مدائح البحتري له . ومن العجيب أن يقول عبد القاهر ذلك ويقول طه حسين « وربما كان اجود شعر البحتري ما قيل في المتوكل[2] » ولعل كل واحد منهما نظر الى هذه المدائح من جانب يختلف عن الآخر ، فنظر عبد القاهر من الناحية الفنية ونظر طه حسين من ناحية الوضوح والخفاء ، وذلك لاختلاف

---

(١) العمدة ج ٢ ص ١٢٩

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ١١٧

الرجلين فناً وطريقة .

وهناك ظاهرة اخرى في هذا المديح ، تلك انَّ من بين قصائد المتوكل كلها قصيدة ميمية مطلعها :

الا هل اتاهـا بالمغيب سلامي

وهل خبرت وجدي بها وهيامي

يصرح فيها البحتري بانه ركب مع المتوكل سفينة الزو[1] وجعلت تطوف به في القـاطول رافد دجلة الذي حفره هرون الرشيد والذي طمر الآن[2] ، وبصرح فيهـا بانه كان يشرب ويسمع الغناء وذلك حين يقول :

هل العيش الا مـاء كرم مصفق

يرقرقه في الكاس ماء غمـام

وعود « بنان » حين ساعد شدوه

على نغم الالحـان ناي « زنام »

ابى يومنا في الزو الا تحسنـاً

لنـا بسماعٍ طيب ومـدام

غدينـا على قصر يسير بفتيـة

قعود على ارجـائه وقيـام

تظل البزاة البيض تخطف حولنا جآجىء طير في السماء سوامي

تحدر بالدراج من كل شاهق مخضبّة أظفـارهن دوامي

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام

(١) الزو سفينة عملها المتوكل . راجع مادة زوى بالقاموس المحيط .

(٢) يوم وليلة ص ٧

ثم انتقل البحتري بالقصيدة بعد هـذا المرح واللهو إلى الدين وآل النبي والاسلام والصلاة والصوم والدعاء، فجاءت فكرة القصيدة على حلاوة ابياتها ضعيفة متضاربة . وهـذا النوع من القصائد لامه النقاد ، وقد لاموا حسان بن ثابت في مدحه النبي وتقديمه للمدح بذكر الخمر في قصيدته : عفت ذات الاصابع فالجواء ، وتصدى ابو العلاء للاثمين في رسالة الغفران واخذ يثبت ان الابيات قيلت في الغزل لا الخمر ، وهو إقرار من ابي العلاء بان القصيدة التي تتجه الى الدين يجب ان تبتعد مقدمتها عن الخمر والغنـاء . ذلك في الشعر القديم . اما في التصوف فذلك امر جديد لم يكن في أفواه أولئك القدامى بمستساغ .

واذا أردت ان تجد لهذه القصيدة شبيهاً آخر في قصائد المتوكل لم تجد ، ولو حاولت ان تسمع في احداهن تصريحا بالسماع والشرب في حضرة الخليفة فانك لن تسمع ، فهل من سبب وراء هـــذا السر في التحول عن الفكرة بعد مرة واحدة ؟

لعل هذه كانت في اول مدائحه له ، ثم تنبه للغلطة او نبه اليها فعدل عن التصريح بما يلام عليه المتوكل حين يذاع شعر ندمائه على الناس فيعرفون ما هو مكتوم . والبحتري نفسه يشهد معنا بان قصر المتوكل وما فيه كان حراما على الناس محجوبا عنهم حجابا صعبا ، وذلك حين يقول في رثائه للمتوكل :

فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها أبوابـه ومقاصره

او لعل البحتري قد أُمر الا يخوض في هذه المعاني ، ثم حددت له الطريق التي يسلكها في مدح الخليفة . والمتوكل ذاته كان في اشد الحاجة للدعاية الدينية لانه هدم قبر الحسين ومنع الناس من زيارته ، فكان الغضب عليه لهـذا العمل شديدا ١ . ثم غطى ذلك بهـدم البيع والكنائس فعمت بليته الناس .

ويرجح هذا الظن عندي قهر المتوكل للبحتري ان يعود للقبـه القديم ، ثم يزيد في ترجيحه انك ترى البحتري في اول مدحه للمنتصر – وهو ولي عهد المتوكل والمتهم بقتله – يقول له ما لم يقل منه حرفاً واحداً لأبيه :

وآل أبي طالب بعدما أذيـع بسربهـم فابذعرّ
ونالت ادانيهم جفـوة تـكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوابك ارحامهم وقد اوشك الحبل ان ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى وصفيت من شربهم ما كدر
قرابتكم بل أشقـاؤكم واخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة وحدّا حسام قديم الأثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب وتتلى فضائلكم في السور

ولعل نزول شعر البحتري في مدح المتوكل كان ايضاً مقصوداً ليفهمه الناس ويتأثروا به ، ولو كان في الطبقة العالية لم يفهم ولم يؤثر . ولذلك جاء كله متكرر المعاني

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٣

مملول المبالغات مصبوباً في المظاهر الدينية ، ومن اجوده قوله :

رمقتك القلوب لما تراءتـ ... ـك وليداً واكبرتك الصدور
واكتنى باسمك الرشيد بعلمٍ ... فيك ماضٍ وجدُّك المنصور
يتـولى النبيُّ ما تتولا ... ه ويرضى من سيره ما تسير
حزتَ ميراثه بحق مبـين ... كل حـق سواه إفك وزور
فلكَ السيف والعمامة والخا ... تم والـبرد والعصا والسرير
وأمور الدنيـا ينفذها التد ... بير مذ صُيرت إليك الامور
تتوخى الهدى وتحكم بالعـد ... ل وترجو تجـارة لا تبور

ومنه قوله :

لعمري لقد زرت المصلى بجحفل ... يرفرف في اثنـاء راياته النصر
جبال حديد تحتها البأس في الوغى ... وفيها الضراب الهبر والعدد الدثر
وسرت بملك قاهر وخلافـة ... ومالك زهو بين ذين ولا كبر
عليك ثيـاب المصطفى ووقاره ... وانت به أولى إذا حصحص الامر
عمامتـه وسيفـه ورداؤه ... وسيماه والهدْي المشاكل والنجر
ولما صعدت المنبر اهتز واكتسى ... ضياء وإشراقاً كما سطع الفجر
فقمت مقاماً يعـلم الله انه ... مقـام إمام تركُ طاعته كفر

ألست تسمع في هـذه الابيات صوت دعاية للمتوكل ؟ وليس المقصود منها الا ان تؤثر في جمهور الناس ، لانها لم تسلك الا الطريق التي تؤثر في نفوسهم ، ومن يدري ؟ لعل جمهور الناس كان غضب على البحتري من افراطه في هذه الدعاية ثم تربص به الدائرة ، فلما كان منه ما قاله في رثاء أبي عيسى ابن صاعد وجد الجمهور رغبته فيه فهاجر الى بـلده وقال

لابنه : قم بنا يابني حتى نطفىء هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ثم نعود [1] ومع ان المتوكل اطلق سراح الفقهاء من السجون ومن بينهم احمد بن حنبل فان اصحاب هذا الامام روّعوا نديم المتوكل وشاعره فهاجر ثم لم يعد .

الشكوى من الخراج

واننا لا نسجل هنا حادثاً تاريخياً ، ولكننا نعرض للبحتري فناً من ادبه كان سببه حب المال والبخل به ان ينفقه ولو على نفسه وذلك حيث يقول :

واني لاسكن جأشاً الى ... رباع الكرام واوطانها
وبعّدتُ نفسي من مالها ... وما ابعدتْ مالَ اخوانها

وبخل البحتري ان يسدد من ثمرة ضياعه خراج الدولة مع عرفانه بأن ضياعه التي اقتناها هبة من آل خاقان ، ولعمري لو اتهم البحتري بالبخل لانه امسك ماله فلم ينفق لما كان ادلّ على اتضاعه من بخله على الدولة بحقوقها — الا اذا كان مقصوداً بالظلم كما صور في بعض أقواله — وهو لم يدع حاكما يستطيع أن يشكوه او يشكو اليه الا فعل . وكانت نفس البحتري تطمع دائماً في ان تأخذ ولا يؤخذ منها ، فهل يرى الخراج الذي ضرب عليه يحطه الى المساواة بالناس ، فهو يعمل على الترفع عن هذه المساواة ويتنبل [2] ، وهو بذلك

---

(١) الموشح ص ٣٤٣
(٢) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٩

على هذه النفس بقوله حينما عاد الى وطنه :

وكان رجائي أن أعود مملكا فصار رجائي أن أعود سليما

وحيث قد أردنا ناحية الفن فلننظر في سطور شكاواه حتى نستطيع ان نفهم منها نفسية البحتري ثم اتجاهات معانيه. وانه ليرجو احد الحكام ألا يسأله عن الخراج فيقول له :

أعطى الرعية حقها من عدله في السر مجتهداً وفي الاعلان

غير العنوف الفظّ حين يجدّ في جمع الخراج ولا الضعيف الواني

وهو في هذين البيتين يعرض بحاكم آخر كان يعنف في جمع الخراج ، ليوحي الى الحاكم الممدوح ألا يأخذه منه . والبحتري يلطف المعنى والغرض بالمقابلة التي جاء بها في قوله « ولا الضعيف الواني » .

ويقول للمعتمد :

وبقيت تفديك الأنام وانه ليقل للمفدي فداء الفادي

أخشى الخراج وقد دعوت لُعظمه ملك الملوك ورافدَ الرفّاد

والبيت الاول ظاهر الثقل لتكرار كلمة الفداء ومشتقاتها . ويقول لابراهيم بن المدبر وكان يسدّ عنه الخراج كل عام :

ولِم لا أغالي بالضياع وقد دنا عليّ مداها واستقام اعوجاجها

اذا كان لي تربيعها واغتلالها وكان عليك كل عام خراجها

الطيف والشيب

إن احتاج باب من أبواب الشعر الى الرقة فالنسيب أحوج . وقد رقّ البحتري في غزله حتى كاد ينقصف في

مشيته ، وجاء بما لم يكن في حسبان المعـاني ، وديوان شعره يموج بهذا الفن موْجا .

إلا اننـا نخطو في سرعة الى ما هو أهم ، فنتكلم عن الطيف ، ونتكلم معـه عن الشيب لانهما في غزل البحتري قرينان . ولقد اسرف البحتري في ذكر الطيف بحيث يكاد يكون من النادر الا تكون له قصيدة عراقية إلا وفيهـا مناجاة للطيف والخيال .

ولم يكن الكلام في خيال الطيف بدعـة البحتري ، وانما هو قد صار خرزة من عقد الغزَل منذ القدم ، وأقدم من استخدمه قيس بن الخطيم فقال :

أنى سربت و كنت غير سروب ... وتقرب الأحلام غير قريب
ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه ... في النوم غير مكدر محسوب
كان المنى بلقائها فلقيتهـا ... ولهوتُ من لهو امرىء مكذوب

واستخدمه عمرو بن قميئة ، وهو أقدم من امرىء القيس فيما يقول الرواة ، وينسبون اليه انه قال :

نأتك أمامـة الا سؤالا ... وإلا خيالا يوافي الخيالا
خيالي يخيـِّل لي نيلهـا ... ولو قدَرتْ لم تخيل نوالا

ويقولون انه لو صح لكان اغرب معاني القدماء ، ويقولون إنه ابلغ ما قيل في بخل المعشوق . اما البلاغـة في تصوير البخل فصحيحة ، ولكني لا أرى غرابة على قديم او جديد في تصوير الخيال ، إذ هو ليس مخترعاً يحتاج الى تبـدل حالات العلم ، ولكنه شيء من عمل الطبيعة والفطرة يجوز

ان يكون قد ساور آدم حينما كانت تفترق عنه حواء .

وينسبون لطرفة معنى في الخيـال مبتكراً ، وهو انه طرده من لدنه فقال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب اليها فإني واصلٌ حبل من وصلْ

وتبعه جرير فقلده قائلاً في طرد الخيال [1] :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وفيما يروون ان عمر بن عبد العزيز حين صار خليفة منع الشعراء عن بابه إلا جريراً ، لان الشعراء صرحوا بالاثم في غزلهم غير جرير فانه أرجع عن بابه صائدة القلوب . والنقاد يرون ان عمر قد رضي عفة جرير في هـــذا البيت إذ رد الحبيب ، ولكن الأمر كان اكثر من هذا فعمر يعلم ان البحتري يرد طيفاً ، وهو كلام أمعن في العفة وأوغل في الطهارة وأدق في الفن .

ومن أقوال ابن الحطيم وعمرو بن قميئة اخذ الاسلاميون والمحدثون اكثر معانيهم في الخيال والطيف [2] وقد استخدمه في الغزل البعيث والنميري ومسلم بن الوليد وابو تمام ودعبل الخزاعي وابن الرومي والبحتري . ولكن ليس لأحد ممن سبق او لحق ما للبحتري في الخيال كثرة وتقليباً وتنويعاً . على ان كلام اولئك كان مجملا عن زيارة الطيف او خاطراً يفيض ثم يفيض . ولكن البحتري لعب بالطيف كل

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٢٦

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٧٦

ملعب بديع .

ومن معاني البحتري فرّع الذين جاءوا بعده من الشعراء أمثال علي محمد الايادي وعبد الكريم بن ابراهيم . ومن اقوال البحتري في الطيف ، وهو من ألطف ما قال فيه :

ولم انس إسعاد الكرى بدنوها ... وزورتها بعد الهدوّ وما تدري
وأخذي بعطفيها وقدمال ردفها ... بطيّعة العطفين مهضومة الخصر
عناق يروّي غلتي وهو باطل ... ولو انه حقّ شفى لوعة الصدر

فقد جعلك البحتري تحب ان ترتوي من هذا الباطل .

وقال :

بعثت طيفها إليّ ودوني ... وخْدُ شهرين للمهاري العتاق
زار وهناً من الشآم فحيا ... مستهاماً صباً بأعلى العراق
فقضى ما قضى وعاد إليها ... والدجا في ثيابه الاخلاق
قد اخذنا من اللقاء بحظ ... والتلافي في النوم ِعدل التلاقي

ومن قوله فيه ، وكأنه كلام جديد يدق باب المسامع لأول مرة :

أخيال علوة كيف زرت َوعندنا ... أرَق ُيشرد بالخيال الزائر
طيف ألم بنا ونحن بمهمه ... مرْتٍ يشق على الملم الخاطر
أفضى الى ُشعث ُتطير كراهم ُ ... روْحات قود كالقسي ضوامر
حتى اذا نزعوا الدجا وتسربلوا ... من فضل هلهلة الصباح الغائر
ورموا الى شعب الرحال بأعين ... يكسرن من نظر النعاس الفاتر
أهوى فاسعف بالتحية خلسة ... والشمس تلمع في جناح الطائر

فانظر الى اشفاق البحتري على الارق من ان يشرده الطيف

الزائر ، ثم انظر الى تصويره الطيف يلاحق الركب حتى الصباح . واما التعبيرات فيكفيك ان تنظر في اقواله : أرق يشرد بالخيال الزائر - يشق على الملم - نزعوا الدجا - تسربلوا من فضل هلهلة الصباح - أعين يكسرن من نظر النعاس - الشمس تلمع في جناح الطائر . انظر الى هذه التعبيرات واستيقظ لها لتعلم انها كانت للبحتري إلهاماً يعجز الشعراء .

•

وكان من جمال الصنعة ودقتها حين ذكر الطيف ان زاوج البحتري بينه وبين ما يشابهه ، فقرن كثيراً من أطياف حبيبه وخيالاته بذكر الشيب أو التحسر على الشباب أو غلبة الهم والحزن . وبين الفكرتين نسب قوي ، اذ يبتدىء صد النسوة للرجال عند بادرة الشيب . وكما انها ظاهرة في الاجتماع فقد جعلها البحتري ظاهرة في اتصال المعاني وهو اتصال صادق كما ان تلك ظاهرة صادقة . ولم يسبق لأحد من قبلنا ان يلتفت الى هذه الظاهرة في نسيب البحتري هذا الالتفات . وقد اتخذناها دليلاً على تماسك سلسلة المعاني في ذهن البحتري .

وكثيراً جداً ما يلتقي هذان القرينان معاً في القصيدة الواحدة بديوان هذا الشاعر فيكونان شطراً كبيراً منها ، وقد نتج من ترافقهما ترافق معنيين آخرين هما الشباب وشخص الحبيب او شخص الحبيب وحده دون ان يذكر الشباب لانه مفهوم ، واذا صح ان يكون الازدواج ايضاً

في الخيـال كما هو في اللفظ والمعنى ، فان الازدواج بين كل اثنين من هذه المعاني الاربعة عند البحتري قوي جميل .

وإذن لم يكن ذكر البحتري لأطيافه وخيالاته كثيراً فقط كما قالوا ، ولكنه كان ايضاً فناً يقلّب المعاني ، ويكاد يستنفدها . والبحتري جسّم الطيف ولقيه وعاتبه وودعه ، وحادثه وصدّ عنه وعنـفه وطرده ، ووقاه الطيف ان يلام على معنىً غزلي ان خرج به عن تقاليد الغزلين[1] .

ومن اقواله في الطيف والشيب في قصيدة واحدة :

قرّب الطيف منتهاها فاصبحـ ... ـتُ حديثاً بناقض العهد عهدا
سكنٌ لي اذا دنا ناء ليـا ... ناً ومنعاً فازداد بالقرب بعدا
سألتني عن الشباب كأن لم ... تدرِ ان الشباب قرض يؤدى
لم يبنْ عن زهادة فيه لكن ... آن للمستعار ان يُستردا

ومن قوله :

وإني وجـدتُ فلا تكذبنّ ... سواد الهوى في بياض الشَعرْ
ولا بدّ من ترك احدى اثنتيـ ... ـن إما الشباب واما العمر
الم ترَ للبين كيف انبرى ... وطيف الحبيبة كيف احتُضر

•

واقوال البحتري في الشيب تحسيناً وتحسراً وتقبيحاً قد اشتهر منها الكثير ، ولا سيما القطعة التي تحسّن الشيب ومطلعها[2] :

---

(١) عبد الله بن المعتز ص ٧٤
(٢) الديوان ص ٤٣٥

ها هو الشيب لائماً فافيقي واتركيه إذ كان غير مفيق

ومن احسن ما رثي الشيب قوله :

لا أرى العيشَ والمفارق بيض إنما العيش والمفـارق سودُ
وأعدّ الشقي جـدّاً ولو اعـ طيَ غنما حتى يقال سعيـدُ
من عدته العيون وانصرفت عنـ ـه التفاتا إلى سواه الخـدودُ

ومن جيده :

عنت كبدي قسوةً منك ما إن تزال تجـدّد فيهـا ندوبا
وحملتُ عنـدك ذنبَ المشيـ ـبِ حتى كأني ابتدعت المشيبا

ومن أجوده قوله :

ناكرتْ لمتي وناكرتُ منهـا لبس سوء الاخلاق والاعراض
شعرات أقصهنَّ ويرجعـ ـن رجوع السهام في الاغراض
وأبت تركيَ الغـديات والآ صالَ حـتى خضبت بالمقراض

وقد سبق لنا ان تحدثنا عن البيت الاخير عند ترقية معانيه . والحق أن الذي يختار للبحتري من اوصاف الشيب يضل في الاختيار .

الحكمة والشعر

حين أجمع القدماء على تقديم البحتري سموه بالشاعر ، وقالوا إنه جاء بشعر ففنى ، ولم يعد أحد يستحق - في نظرهم - أن يذكر بهذا اللقب غيره . فلما قال ابو العلاء قولته : المتنبي وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ، اول الناس قولة ابي العلاء على هواهم ... وسبق إلى افهامهم ان

ابا العلاء قد سلب الحكمة عن البحتري كما سلب الشعر عن صاحبيه ، وصدّ الناس عن أن يدرسوا حكمة البحتري . ولكن ابا العلاء لم يرد ما فهمه الناس وانما اراد – ولا رأي غيره – ان الثلاثة شعراء وأن الثلاثة حكماء ، ولكنك تقرأ حكمة البحتري شعراً لطيفاً ، وتقرأ شعر الآخرين حكمة وعللا . وما أظن أبا العلاء يليق به ان يريد غير هذا .

وإذن فالبحتري حكيم كما هو شاعر ، بل هو الشاعر الذي استطاع ان يصبغ الحكمة بصبغ الشعر ، ولم يجعلها كلماً مستقلاً يمكن أن يقتطع من القصائد ، بل سبكها قديمة وجديدة في ثنايا كلامه فلم تحسّ الا أنها أضلاع من تعبيراته لا تفترق عنها ولا تقتطع منها . وهل كان يمكن البحتري ان يبتعد عن الحكمة والتفلسف والعصر كله اشتغال بالحكمة والفلسفة ؟ انه وان كانت العلوم والمنطق والفلسفة في المكان الثاني من العلم فانه لا يستطيع ان يخرج من نطاق التأثر بها شاعر مهما ابتعد به طبعه عن غمارها .

واليك بعضاً من حكمه غير ما عرضنا له من قبل في اثناء الكتاب تحت اغراض اخرى ، يقول :

يا بن نهيك احدوثة عجب والدهر مثر من الاعاجيب

والشطر الثاني حكمة وكأنما جاءت لا يستغني عنها الشطر الاول فلم تنفصل عنه ولم تنصع .

ومثله :

انت نعيمي وانت بؤسي وقد يسوء الذي يسرّ

ومثله :

اذا شئت الا تعذل الدهر عاشقاً   على كمد من لوعة الحب فاعشق

•

ولقد أصابت البحتري نوبات فلسفية فاعتقد في اختلاف الافكار باختلاف الاجناس ، وقال :

اذا تشاكلت الاخلاق واقتربت   دنت مسافة بين العجم والعرب

واعتقد كذلك في اختلاف الطبائع فقال :

لولا التباين في الطبائع لم يقم   بنيان هذا العالم المجبول

واضطرب في رأيه في المرأة فآمن بها حينا وكفر بها حينا آخر ، فهذا الذي يقول في ام المعتز :

ابوه البحر ساح لنا نداه   ففاض وأمه ماء الغمام

هو نفسه الذي يكفر بالمرأة في القصيدة المنسوبة اليه في رثائها في قوله :

أتبكي من لا ينازل بالسيف   مشيحاً ولا يهز اللواء

والابيات مشهورة . ولعل هناك مؤثرات شجعت البحتري على ان يرثي ابنة الطوسي هذا الرثاء الذي ظلم فيه المرأة . ولكنها كانت مرة واحدة ثم لم يعد اليها .

ويقول البحتري في احوال الناس وتقلبها شيئاً كثيرا ، فيقول في سترهم الخيانة بالحلف :

ما أخون الناس للعهود وما   أشد اقدامهم على الحلف

وفي الطبائع والاخلاق تدل على الناس يقول :

ومتى سألت عن امريء اخلاقه   صدقت عليه أدلة وشواهد

والناس ضربان اما مظهر نقمة يثني بنعمى واما مظهر حسدا
وما الناس الا واحد غير مالك لما يبتغي او مالك غير واجد

ويقول في الدهر :

كيف تقضي لي الليالي قضاءً يشبه الحق والليالي خصومي
وعجيب ان الغيوث يرجيـ ـن من لا يرى مكان الغيوم
منع الدهر ان يسوي في القسـ ـمة بين المحظوظ والمحروم

ويقول في التجارب والاستنباط منها :

قد نقّلت نوب الايام من شيمي لكل نائبـة رأي أجانبه
تجارب ابدلتني غير ما خلقي وتوسع المرء ابدالاً تجاربه
اذا اقتصرت على حكم الزمان فقد أراك شاهد امرٍ كيف غائبه

وقال في التواضع :

وتواضع لولا التكرم عاقه عنـه علوّ لم ينله الفرقد

وقال في الرأي ، ولم يقل مثله أحد من الشعراء :

يتأنى بغي التعجل والاعـ ـجلُ في بعض شأنه يتأنى
مدرك بالظنون ما طلبوه بفنون الاخبار فنا ففنا
لا تُرِد عند من تخير رأيا واطلب الرأي عند من يتظنى

•

هـذا هو البحتري الحكيم ؛ او البحتري الشاعر الذي نهض باسلوب القول العربي الى درجة معجزة من الرقي ، وقد مات بعد ثمانين في بلده «منبج» بالسكتة القلبية ولكن صوته لم يسكت قط ، ولن يسكت له ابد الدهر صوت بكاء ، ولا لحن غناء ..

مراجع الكتاب

١	الأدب التوجيهي	لجماعة من الاساتذة
٢	أسرار البلاغة	للجرجاني
٣	الأغاني	للأصفهاني
٤	البحتري	لجرجس كنعان
٥	تاريخ آداب العرب	للرافعي
٦	تاريخ بغداد	للخطيب
٧	تاريخ الشعوب الاسلامية	لبروكلمان ترجمة البعلبكي وفارس
٨	ثمار القلوب	للثعالبي
٩	حياة الحيوان	للدميري
١٠	دلائل الاعجاز	للجرجاني
١١	ديوان البحتري	طبعة بيروت
١٢	ديوان المعاني	لأبي هلال العسكري
١٣	الرؤوس	لمارون عبود
١٤	رسالة الغفران	للمعري
١٥	زهر الآداب	للحصري
١٦	السنن النفسية	لغوستاف لوبون ترجمة زعيتر
١٧	شرح عقود الجمان	للسيوطي

١٨	الشوقيات	لأحمد شوقي
١٩	الصناعتين	لابي هلال العسكري
٢٠	طيف الوليد	لعبد السلام رستم
٢١	عبث الوليد	للمعري
٢٢	عبد الله بن المعتز	للمؤلف
٢٣	عبقرية ابي تمام	للمؤلف
٢٤	العمـــدة	لابن رشيق
٢٥	فلسفة ابن سينا	لجواشون ترجمة لاوند
٢٦	القاموس المحيط	للفيروز ابادي
٢٧	اللباب	لعزالدين بن الاثير
٢٨	المثل السائر	لضياء الدين بن الاثير
٢٩	مسالك الابصار	للعمري
٣٠	المطالعة التوجيهية	لجماعة من الاساتذة
٣١	معجم الادباء	لياقوت
٣٢	المغني	لابن هشام
٣٣	مقدمة الحضارات الاولى	لغوستاف لوبون ترجمة صادق رستم
٣٤	مقدمة المرزوقي	تحقيق شكري فيصل
٣٥	من حديث الشعر والنثر	لطه حسين
٣٦	الموازنة	للآمدي
٣٧	الموشح	للمرزباني
٣٨	همزيات ابي تمام	لعبد السلام هرون
٣٩	الوساطة	للقاضي الجرجاني
٤٠	يوم وليلة	للمؤلف

فهرست

•

صفحة

مقـــدمة ٣

الباب الاول : مزايا الشاعر ٩

الى شبهة الحضارة ٩ ـ المزاج الحادّ ١٥ ـ
انتظام الدراسة ٢٧ ـ التقليد والطبع ٣٨ ـ
الاجماع عليه ٤٤

الباب الثاني : مسالك طريقته ٤٩

اللفظ المفرد ٤٩ ـ اللفظ مع اللفظ ٥٥ ـ
التجانس ٥٩ ـ تنضيد المعاني ٦٧ ـ معراج
الرقي ٧٢ ـ بناء القصيدة ٨٠

صفحة

الباب الثالث : مشهور شعره ٨٧

المشهورات ٨٧ – الاوصاف ٩٢ – اغراض مختلفة ١٠٠ – ظاهرة في مدح المتوكل ١٠٢ – الشكوى من الخراج ١٠٧ – الطيف والشيب ١٠٨ – الحكمة والشعر ١١٤

مراجع الكتاب ١١٩

فهرست ١٢١

للمؤلف

●

النكتة المصرية	١٩٤٨
يوم وليلة	١٩٤٩
ملحمة الفالوجة	١٩٤٩
عبد الله بن المعتز	١٩٥١
عبقرية أبي تمام	١٩٥١
أبو طالب	١٩٥١
عبقرية البحتري	١٩٥٣

يصدر قريباً

١ ـ النقد التطبيقي لطلبة البكالوريا في سوريا ولبنان
٢ ـ حول ابن المعتز كتاب في النقد التطبيقي
٣ ـ زينب سيدة الطف" قصة أدبية تاريخية

وكان الفراغ من طبعه
في يوم الاثنين الواقع في التاسع
من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٥٣

وذلك على مطابع

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

١٦٩ / ٢ / ٥٣